محمد قطب

عندما غرد البلبل

رواية

الكتاب: عندما غرد البلبل (رواية)

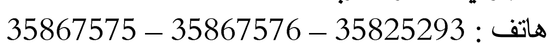
الكاتب: محمد قطب

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد
عندما غرد البلبل – رواية / محمد قطب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: **7 – 298 – 446– 977– 978**
أ – العنوان رقم الإيداع : **5479 / 2017**

عندما غرد البلبل





خطوبة

حين اقتربت من البيت أدركت أن شيئا ما يحــدث.. ثمــة عربة سوداء تقف أمام المدخل تكاد تغلقه.. تذكر أن عينيها لم تلامسا مثل هذا النوع من السيارات في شارعها الضيق، البعيد عن نهر الشارع الرئيسي.

نهض الحارس وابتسم.

سارت متمهلة وقلبها لا يطاوعها.. صــعدت الــدرج، وتوجســت.. استقبلتها أنوار تغمر باب المسكن. وصلتها أصوات مرحبة.. أدركت أن زائراً بالبيت.

ألقت التحية ودلفت إلى الداخل. استقبلتها الأم بفرحة علت وجهها وغمرته. سألتها عن الضيوف فافتر ثغرها وغمزت بعينها.. أغضت حياء وغلبها الخجل.

.. أطلت، فلمحت رجلا أنيقا يجلس في اعتدال وأبوهــا يســامره، ويرحب به، حين دخلت مع أمها، فسلمت وجلست. لم ينشــغل بالهــا بشيء.. لكنها توقفت أمام رابطة عنقه، زاعقة اللون.

نظر الأب إليها وقال مبتسما:

– الأستاذ تاجر أدوات منزلية معروف.

رنت إليه، بدا متأنقا، وهيئته تخفي عمره الحقيقي.. وتذكرت محلـــه العريض، في الجانب الغربي من الحي.

صمتت، وهو يسترسل مع الأب.. أوقعتها أمها في هذا المطب.

– ادخلي معي، ورحبي بالضيف، تعرفي على النـــاس.. لم تعـــودي صغيرة!

نظر الرجل إليها وابتسم. عينه لا تكف عن الحركة، تدور في فضاء الحجرة، وتحط على الوجه والجسد.

داخله إحساس أنه عثر على أنثاه، وأنها ستوافق، ولن ترفضه. عيناها تبوحان، تبحثان عمن يحقق الأماني.

رفع الأب رأسه نحوها، ورمش بعينيه.

أدركت ما يريد، فنهضت وأنسلت خارجة.

اهتاج شعورها، وكزت على أسنانها ورددت غاضبة..

– أيكون جاء ليخطبني؟

كانت أمها ترمقها وهي ترتب هدايا الرجل.

– أتعرضين بضاعتك على الناس؟

نهرتها الأم، طالبتها أن تختار الألفاظ، فلم تعد صغيرة، ومن في سنها لديها الزوج والعيال.

مسكت زجاجة العطر وأدارتها أمامها.

– عطر مستورد.. من باريس

تناولت الزجاجة، تطلعت إليها ثم رمت بها.

رمقتها الأم، والتزمت الهدوء، والصبر عليها... هي تعرف جموحها أحيانا، لكنها في النهاية تلين.

– لم يطلبك أحد.

حدثتها أن العمر يمضي، والزمن يسرق البهجة، وإننا أن لم نروضه يغدر بنا، ويمشي بين الناس يتحدث عما حلّ بالبدن، فتهرب العيون.. وتحل بنا الحسرة.

أربدّ الوجه، واختلجت ألما.

كاد الغيظ يختقها وهي تستمع إلى أمها.. لم تتعد بعد الخامسة والعشرين.. وكلام الأم يشعرها أنها على مشارف الكهولة.. واحتدت.

– أتبيعينني؟!

ردت الأم في جفاء:

– على الأقل يسعدك بماله.

ابتعدت.. وجلست على حافة السرير.

.. كيف تتزوج بهذه الصور؟ أليس لها رأي؟ أليس من حقها أن تختار؟

أحنت رأسها، وبسطت كفيها، على ركبتها وضغطت.

- أعددتم كل شيء.

اقتربت الأم.. وشعور يقبض صدرها

- لا رأي لي، حجر تحركونه.. يمين شمال!!

ودنت، قلبها ينبض بقوة، ربتت على رأسها، ومسدت شعرها.

- الخطوبة فرصة للتعرف.. ومن يدري.. قد يروقك..

مدت يدها، ورفعت رأسها، قبلتها، مسحت جبينها، ووجنتيها.. لم تقوَ على التحمل.. فكبت.. أحتضنتها الأم حتى هدأت.

رنت إليها طويلا وتساءلت:

- هناك أحد يشاغلك؟!

نظرت إلى البعيد، تساقط الحزن من ملامحها.. وهي تمتم في رعشة موصولة.. وأسى يفيض من عينيها وهي تتذكر هذا الذي ملأ القلب، ولم يبد رغبة، أو يوح بشيء.. وظل يعكر صفوها بحديث السفر..

انهضتها الأم... مسحت دمعها، أخذت وجهها في حضن كفيها، وقبلتها.

– لا تتعلقي بالأوهام.

كلنا تزوجنا .. هكذا..

توسلت بنظرتها إلى الأم:

– اعتذروا له.. قولا له سببا ما.

– هو أفضل لك من غيره.

اسمعي كلام أمك.

تزوجي من يسعى إليك ويلح في طلبك.

أرسلت عينيها من النافذة إلى الفضاء الواسع لم ترَ في السماء نجمة.. هالها الصمت، وأصوات الهوام، وحلكة تحيط بالمكان.

ينصحون البنت في موقف كموقفي.. تزوجي من يحبك، سيسعدك ويجعلك أميرة.. ولا تتزوجي من تحبين فسيجعل منك أمة في البيت!!

وانفتح الباب.

دخل الأب وألقى بالخبر:

– الرجل جاء خاطبا، والخميس القادم.

سيتقدم.. رسميا.. وأهله معه.

وهو يستدير، نظر إلى الأم.

– استعدي.. وجهزي البنت.

وانفجرت باكية!!

زواج

أغلقت غرفة قلبها، وأحكمت الرتاج.. واستسلمت..
تلاشى الحلم أن تختار.. ورضخت.

لم تكن قد تهيأت وهو يأخذها بقسوة، ويجردها من ملابسها
وبدا كما لو كان يعاقبها لموقفها الرافض.. وحين انتهى
تركها لألمها وأشعل سيجارة.

جمعت أعضاءها وتكومت.. أيقنت منذ اللحظة أنها لم تعد مهيأة للارتواء، قدمت نفسها له واكتفت.

تدرك أنه يغدق عليها، وعلى أسرتها. تجاوزت، وتألمت. رضخت لأهوائه، وأوامره، فلم تعمل واكتفت أن تكون زوجة لرجل لا تراه إلا في الهزيع الأخير من الليل.

ألقت بأحلامها عند عتبات البيت، لم يخفف ألمها زيارة الأهل، أو لقاؤها بالأصدقاء، والصديقات.

ضاقت بوحدتها، وتمنت أن ترزق بطفل يرمم روحها التي تداعت.

لكن الطفل غاب.. وظل أمنية ترف على الخاطر.

عرفت الطريق إلى الأطباء.. ينظر الواحد منهم ويقول:

– أنت زي الفل.

ولم يقل له الطبيب غير عبارة واحدة:

– أنت سليم تماما.

وانتظرت أن يحن الرحم ويكف عن عناده، ويفتح أبوابه، ويلـــتقط البذرة.

.. ظل يراقبها ويتملى فيها ويندهش من حالة الأسي التي أصـــابتها منذ أن خطت عتبة البيت، وكأن جنيا يطاردها ويأخذ بهجتها.

حين اقترب منها، وتمعن.. لاحظ شحوبا على الوجه، كيف استكان الوجه، وتخلى عن الإشراق؟ ولاحت الملامح متهدلة، تفتقد البريـــق!!.. كيف تبدو حين يمتد العمر؟.. وكز على أسنانه غضبا وهو يرى أعضاءها تتراخى، وحركتها تتثاقل.

– لست على ما يرام.

وكأنما نسج العنكبوت خيوط الصمت. فنظرت إليـــه ولم تنطـــق.. أقلقة هذا الشرود الذي يأخذ عينيها.. يذكر أنه لم يتوقف كـــثيرا أمـــام تأخر الإنجاب، واقتنع بكلام الأطباء.. ما الذي دهاها، وسرق بهجتـــها، وجمالها؟!

– ماذا بك؟

تذكر أن الحديث بينهما نادر.. كانت تتفادى الحديث معه.. وكانت تعلل الأمر بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الكلام.

– إرهاق.

زاحمته رائحة البن فمد يده إلى الفنجان حين رشف رشــفته الأولى، تقلص فمه.. يحب قهوته سادة وهي تعرف ذلك، لكنها هذه المرة أضافت السكر، وأكثرت منه.. ترى أتتعمد؟، أم تكن قد نسيت!!

نظر إليها لائما.. لم تعلق.. وراحت تدور بعينيها في المكان وتتوقــف عند الفنجان.

– كنت تجيدين عمل القهوة.

وكنت أفتخر بصنيعك.

عاود النظر إليها وهم بالمغادرة

– ألا تشرب القهوة؟

– سأشربها في المقهى.

تنفست بعمق، وتنهدت، ومدت يدها إلى الفنجان وراحت تمــتص رشفاتها في لذة، ثم قذفت به.

تحول الفنجان إلى فتافيت، مدببة فوق الأرض.

تدرك أن الهموم التي أصابتها تركت آثارها، فقد الوجه رونق، والخد حمرته، والعين بريقها، وغلبها الشرود.

لم تنس كيف كانت نظرته تخترقها كالسكين وهو يؤنبها؟

– ألا تنظرين إلى وجهك أبداً؟

كانت تدرك مقصده، لا تبالي بما يقول، فتدير له ظهرها وتمضي إلى حجرتها، وكان يهرع إليها صارخاً.

– أنت في حالة يرثى لها.

ويجذبها من طوق ثوبها ناهراً..

– عليك أن تذهبي إلى الطبيب غداً.

ويعلو صوته مؤنبا..

– لعله يكتشف العلة فيما أصابك.

نتشت نفسها منه، وجلست على طرف السرير.. وبكت رجّها البكاء، فأغلق الباب في صحكة عالية.. ومضى.

قل تواجده في البيت.

يأتي متأخرا، يسوق أسبابا لتأخره، العمل يأكل وقته، يردد أمامها أنه يدور كالثور في الساقية، لم يقصر في تحقيق طلباتها، الأكل والشرب والملبس وكافة ما يحتاجه البيت، ويفيض.

لا ينكر أنه يغضب حين تطلب المزيد.. ويتعجب ويلومها:

– ماذا تفعلين بكل المال الذي أعطيه لك؟

وبدا كما لو أنه يود أن ينسحب، لم يتوقع أن يكون الجفاء هو ردّ الفعل بكل ما يفعله لها؟.. لم يجبر أحدا على شيء.. لا ينسى الفرحة التي غمرت أسرتها، واهتمامهم به.. وعلل نفسه أن يصبر.

وكلما تأخر، ادّعى أنه مشغول.

لكن هاجس الأنثى راح يشاغلها، ثمة أمور أخرى وراء ابتعاده، لم يكن يصبر كثيرا بالرغم من عدم تجاوبها، والإيحاء بأنه يجبرها على الفعل، لكنها كانت ترى أنه يكتفي.. هل تمادت فمد يده ليقطف أخرى!!

هذا التجاهل الذي يبدو منه يقلقها..

قل الحديث بينهما، ولم يعد يسأل عما يحدث في البيت، أو يلفت نظره تغيير تحدثه، أو أشياء جديدة تجمل بها المكان، أو تبديل الستائر بألوان زاهية.. أو «فازات» الورود في الزوايا وكأنما تعتذر عن جفائها الأول.

يتلقص قلبها حين تتذكر أن ما كان يحدث بينهما من عواطف ولقاءات تباعدت حتى كادت تختفي، نابت الإيماءة أو الإشارة، أو النظرة، عن الحديث أو الحوار.

كان قد وعدها بإجازة يقضيانها بعيدا عن البيت، والعمل.. لعلـــهما يجددان حياتهما، ويستعيدان لقاءات دافئة، وأحاديث تروي القلب وتعيد للسان دوره، وثرثرته، وسافر خيالها إلى العين السخنة. وقراها السياحية.

لكنه تناسى الأمر، أو تجاهله.. أخذه العمل كما يدّعي..

أرادت أن تذكره بوعده، أن تخبره بأنها استعدت للقيام بالرحلـــة.. وتهيأت لها.

لم يفته القلق البادي عليها، والارتباك في الحديث معه.

رمقها بإمعان وهو يردد:

– لا تختارين الوقت المناسب.

خرج منها صوت يهمهم.

– أنت الذي وعدت.

– إنني أدور في طاحونة.

وهو يستدير مبتعداً قال في تأفف ولوم.

– ألا تشفقين على مرة في حياتك.

.. تدثرت بالصمت.. هو ملاذها حين تعجز عن مواجهته.. وعـــدم رغبتها في الحديث، فالمواقف تتكرر، والحجة جاهزة.. طاحونة العمـــل.. الذي يدور فيها.. وحجر الرحى الذي يسحقها.

تسلل الحزن، وفاض الألم، واكتأبت.. واعترفت أنها السبب.. وأن البيوت لا تقوم دائما على الحب.. وأن الحب يخدع، والنفس تهوى الكذب، ويغريها الخداع..

ودّت لو تترك البيت، والزوج والحي كله. والأب والأم والأسرة.. لكن إلى أين؟! فهي تكاد تحيا في عزلة تقبض عليها.

هل تقوى على أن تشحن روحها بطاقة جديدة؟

وهل تستطيع أن تواجه وحدها بحب الحياة، والخروج إليها ومطاردها؟

وهل تتناسى ما يشغلها من زوجها وقلقها من تأخره؟ وتغيره؟ أيمكن أن تستعيد بعضا من جمالها الذي شحب وروحها التي ملّت؟

ودربت نفسها.

أعادت ترتيب البيت حسب ما تهوى.

لا يشغلها أيرضي زوجها أو يرفض..

ترتدي ملابسها المفضلة.

وتفتح علب مجوهراتها.. وتتزين..

تفض أختام الجسد.. وتتهيأ..

تعرف طريقها إلى الخارج...

وتغادر البيت إلى ما تهوى.. وتحب.

رجفة

في المساء جاءته زائرة..

كانت زوجته قد شكته إليه. يعاملـــها بجفـــاء، يتجاهـــل مشاعرها ويرفع صوته يؤنبها على ما تقوم أو تفعل حـــتي ضاقت به..

نظرت إليه وهو يفتح الباب ويستدير دون كلمة..

دخلت متأففة وقالت:

– كأنني ضيفة ثقيلة!

خرج صوته واهنا:

– متعب قليلاً.. اعذريني.

– أين امرأتك؟

أسند رأسه على كفه وحدق في الفراغ:

– عند أمها

رنت إليه وتساءلت:

– زيارة.

– لا.. غاضبة.

آلمها انكساره فرفعت صوتها وطوحت بيدها:

– تحرك، قم وقدم لي مشروبا.

نهض متثاقلا في اتجاه الثلاجة.. أخرج عصير المانجو وأعد كأسين.. وضعهما على المنضدة الصغيرة.. وجلس.. رأته ذاهلاً، كأن شيئا يشغله:

– حدثتني.. ودافعت عنك.

وابتسمت.

مدت يدها نحو الكأس، قبضت عليها وأبقتها بين أصابعها.

رشفت رشفة واحدة... ثم أعادتها:

أدرك رائحتها فشم عطرها الذي تداوم عليه ورفع رأسه..

.اعتدلت في جلستها وخطفت نظرة إليه، وآلمها الانكسار الذي يكسو ملامحه:

– أرجو أن تحسن معاملة زوجتك.

حدّق فيها وصمت.

مدت كفها وسوت خصلة من شعرها.

– امرأتك جميلة.. وتحبك.

لفت انتباهها صوته الحاد.

أشك أنها تحبني.

***

راح يتحدث عن برود زوجته، وخرسها الدائم، وانشغالها بعملـــها، وبأعمالا البيت التي لا تنتهي...واحتد..

– كأنها تهرب مني

تفتعل الحجج كي لا نلتقي

افتر ثغرها عن لمعة وضيئة..

– امرأتك طيبة.. لكنك بعيد عنها.

– انتفض جسده ، وبدا وجهه منقبضا.

وضع كأسه الفارغة في خطفة مباغتة حتى كادت ترتطم وتنكسر..

– اشربي العصير.. ولا تنشغلي بنا.

زمت شفتيها وصمتت

***

نهض فجأة، وراح يجوب البهو في عصبية واضحة..

تقحم نفسها علينا، ألم يكفها ما فعلت؟.. أية امرأة هذه؟ تتخابث، تخاطر بسلوكها العفوي وتدعي النصيحة.. خالتي- أمها- لم تسألني؟ أو تعاتبني؟ لو علمت الخالة بزيارتها في غيبة زوجتي، لمسكتها من شعرها وجرتها بلا رحمة.. جاءت تنصحني.

وكأنني لا أعلم كم هي تعيسة مع زوجها!

زوجها الذي يتعلل بالسفر هربا منها.

وها هي تأتي لترأب الصدع بيننا.

أطال إليها النظر ولاحت عينه تلومها!

.. أراحت عينيها من متابعته، ومن تمتمات شفتيه..

اتكأت على طرف المسند، وخلعت حذاءها، مدت ساقها فلاح القدم نظيفا، والطلاء البني على الأصابع يغازل العين.

- متى تركتك؟

انشغل بقدمها، وساقها الممدودة، وخصلة شعرها التي تتمرد فتحجب جانبا من الوجه، وأصابع يدها وهي تعيد لشعرها استواءه.

- لم تجبني!

خلع نفسه منها وقال في وجّة كأنه فوجئ.

– من أسبوع

***

تمنى لو يبوح لها بالسبب.

هي نفسها التي تقف عائقا بينهما، هل قالت لك إنـــني ذكرتـــك في لقائنا الحميم.. كانت لحظة عصيبة، ولو أنني تدراكت الأمـــر وادعيـــت همهمة على صورة الاسم.. لكان الأمر قد أذن بخلاف لا ينتهي.

كانت لحظة عصيبة.. لكنني طوّعتها ثم لزمت الصـــمت خشـــية أن يفلت اللسان باسمك.

وبدا الأمر بيننا باردا حتى كدنا نتجنبه

كان ينظر إلى ساعته، وإلى ساعة الحائط، وإلى ســـاقها المفـــرودة.. والوقت يمتد. وهي تتكئ على مسندها وترنو إليه.

– ألا زال مسافراً؟

– من!

– زوجك!

أومأت برأسها، وفلتت خصلتها.

هبّ فجأة، ودار حولها، ثم أخذ الكأسين ودخل المطبخ.

مدت يدها إلى مجلة نسائية، شدها عناوين عن الخرس الزوجي، والأغذية التي تثير المشاعر، وتعدل المزاج التعس، وهفوات الزواج، واستدعاء الماضي، وانسحاب الحب.. طوحت بالمجلة.. وأحدث ارتطامها صوتاً.. فسوّت أوراقها واعتدلت.

عاد ورائحة البن المحوج تفوح

قالت:

– أتعبت نفسك

تبسم:

– أنت ضيفتي.

– لا تقل ذلك... أنا ابنة خالتك.

مدت يدها إلى الفنجان ورنت إلى وجهه:

– شكراً

ظلت بالنسبة له عصية المنال.

حين أراد أن يخطبها ضحكت زاعقة كعادتها وقالت:

– أيتزوج الأخ أخته؟

كتمها في نفسه، كان الليل في أوله.. طوح بيده لعل ذراعـــه يبعـــد ظلمته.

– أنا ابن خالتك...!

دفست رأسها بين كربتيها، ثم رفعت رأسها

لاح الوجه محمرا، والعين مبتهجة ورمقته رانية

خففت من أنفعالها وهمست:

– أنت أخي.

التزم صمتا ساكنا.. وتابعت هي في دلال..

– أخي الذي لم تلده أمي.. خالتك!

أدار وجهه تجاه النافذة.

الأضواء المارقة، تنفذ من النافذة، وتمسح الجدران، وترسم أشكالاً، وتفرش الظلال.

انحنى، والتقط المجلة، سوى ورقها، ومسح غلافها، وتحسست أنامله صدر الفنانة العاري.. وضعها بعيدا.. وجلس.

حدقت عيناه في وجهها الجميل.. ولاذ بصمت ساكن يغالـــب فيـــه قلقه.. خشيت أن يطول الصمت فقالت وعينها تأسى له:

- اشرب القهوة.

مدّ يده، والتقط الفنجان.

- أسبوع واحد قلب حياتك!

وهي ترشف رشفتها الأخيرة بدت كالبريئة.. صافة الحس.

- اذهب إليها.. واسترضها.

اقترب منها،واجهها، تلامسا وهي تضع فنجانها.. رنت إليه، قرأ لوماً مستكنا، فارتد إلى الوراء.

***

استندت إلى ظهر الكنبة، ومدت قدمها إلى الحذراء، سكن القدم في وكره الناعم.

نظرت إلى ساعتها، وإلى ساعة الحائط.

- العاشرة... تأخرت.

نهضت، فنهض، قالت له وهي تتهيأ..

- اذهب إليها..

وتودد، قل لها كلاما حلوا، ذكرها بما مضى، أشعرها بوجودها..

استقام جسمها فلاح صدرها نافراً..

- أنت تكذب.. أكذب وقل لها إنك تحبها.. وقتها...

وصمتت، لعله ينتبه، أو يدرك ما تقول.. لكنه كان غافيا، وكانــــت عيناه ترقدان على صدرها.

ضحكت، وصوتها له رنين الذهب.

- سيطيعك الجسد إذا أحببت.

وظل صامتا...

لكن عينيه راحتا تتمليان الوجه، وتلمسان ملامحه.

وهي تخطو نحو الباب.. استدارت كأنما تناصحه.

- إن أردت أن أذهب أنا وخالتك إليها.. سنفعل.

رد باقتضاب..

- لا.. سأذهب.

أشارت له بيدها.. وأغلقت الباب وراءها.

راح يطارد الرائحة التي تملأ المكان، عطرها الذي لا تغيره يســـبقها كغيمة من عبق.. ترك عطرها وراءها تشغله به حتى حين.

تلك التي جاءت وغادرت وقفت حاجزا بيننا، زوجتي نفسها تنبهت للأمر.. ابنة الخالة، تنصلت من تاريخها وتركت لي عطرها.

هل تنسى تلك الليلة!! هل جاءتني مودعة!!؟

كان الرنين مدويا، فركضت نحو الباب أفتحه.

رأيتها تسد فتحة الباب وتقول:

- هل طلبتني؟

تفرست فيها.. ونفيت

اقتربت مني حتى كادت تلتصق

- أنت ألححت في طلبي.

سمعت صوتك يأتيني من نافذة المطبخ وأنا أصنع فنجان قهوة لي.

كانت ترتدي قميصا قصيرا.. وشفافاً.

دخلت وأغلقت الباب وراءها.

ماذا تريد ابنة الخالة، وهي تعلم أنني بمفردي.. وخالتـــها في زيـــارة لأختي وزوجها.

لم يفتها أنني أرتجف..

اقتربت وقالت في تمهل:

- أنت تهمل في نفسك.

جسمك في النازل.. ألا تطعمك الخالة.

تتقدم، في جرأة تعودها، دخلت المطبخ وعلا صوتها:

– كأنك ولد صغير.

رأيتها تمسح آثار البن المراق، وتلتقط كسرا صغيرة من الخبز..

كان الأمر لا يحتاج اهتماما.. لكنها فعلت..

كشف انحناؤها عن ساق تلمع، وسهلت فتحت الصدر أن ترى العين الخبئ.

هذه البنت الجميلة التي توشك على الزواج، تضع على الطاولة فنجانين من القهوة التي فاحت منهما رائحة لها نكهة مميزة.

كنت أشفق عليها وأنا أراها تجلس أمامي مكتنزة، وجسدها مبذول «طوع» العين، لم تتكلف في جلستها، أو حديثها.. لكنها الآن على وشك الزواج.

***

وكنت أرنو رامقا ثراءها الذي يتبدي مبهراً.

وكانت تزمشفتيها مبتسمة كأنها تقول: أراك.

ولم أجرؤ على فعل شيء.

لا أحب أن تتورط معي، وهي تخطو نحو الزواج.

يجب أن أنهي الموقف.. موقف لا ينبئ بخير..

ما بيننا انتهى.. فلا هي وافقت..

ولا أنا حزنت، أو جننت!!

ارتجف بدني، مرة، وثانية..

نهضت ووضعت كفها على رأسي:

– حرارتك عالية.

وضعت رأسي بين يدي، فشدت شعري.. تألمت:

رفعت رأسي محدقا.. فقالت مندهشة:

– أنت متعب، أو مريض.

قلت في نفاد صبر:

– احتاج إلى الراحة.

نظرت إليها في توسل حقيقي.

– كفاك.. ستتزوجين بعد يومين..

***

نهضت.. استوى عودها، وطوحت بيدها.

وقالت ساخرة:

– قل للخالة إنني جئت.

وخطف نحو الباب وهي تهمهم:

– جدد حياتك..يا..

وصفقت الباب وراءها في ضجة ارتجف لها..

.. وارتجف الليل.. وفرش رعشته على البدن..

لكن العطر الذي كالغيم ظل يدور في المكان.. ويتأبى عليه.

.. ومع أنه يزاحم الفراغ.. فهو... لم يستطع أن يبعد عنه حالة الحزن عليها.. فمهما حاولت أن تتجاهل فالأمر لا يخفى عليه أو على خالته.. أو حتى زوجته.

.. تدرك الأسرة عدم الوفاق في البيت..

وتمنى لو تنجب..

لعل الإنجاب يعيد للبيت دفئه..

الشيخ

دقت الباب دقتين.. ثم توارت.

كان الليل مهيمنا، والنجوم تلوح في ظلمته القابضة.

فضلت أن تذهب بمفردها حتى تبعد العيون وتشغل الألسنة وورب الباب.

فولجت... أدخلتها امرأة منقبة إلى حجرة داخلية وتركتها.

لم يمر وقت طويل حتى دخل عليها الشيخ الذي طار صـــيته في عـــلاج النفوس القلقة، وتحنين الأرحام.. سلم، وجلس على مقعده وراح يتمتم.. وصلتها أطراف من الآيات والأدعية «ربنا أتمم لنا نورنا».. يـــا مـــنفس الكرب عن المكروبين فرج كربتنا.

.. ظلت لابدة ترنو إليه في وجل.

تخيفها عيناه الوارمتان، وحاجباه الكثيفان، ويشغلها مسبحته الزرقاء بحباتها التسع والتسعين، وشراشيبها قانية الحمرة.

لم تتوقف أمام الأزرق والأحمر الداكن.. وانتظرت.

طالت تمتمته فتوجست.. يا عظيم المن من علينا برحمتك.

قطع دخول المنقبة هاجسها فتلفتت، أومأت إليها فتهيأت.

وضعت صينية فوقها فنجانا فسيح القاع ثم استدارت ومضت. كف الشيخ عن التمتمة، وتجنب نظرتها، ومد يده إلى الفنجــان، وحــدق في رغوته البنية الزاهية. أغمض عينيه، ثم فتحهما ورشف رشفة واحــدة ثم نفخ فيه.. وهمهم.. يا من يعلم شوق المشتاقين.. حقق شوقهم.

استوى على المقعد.. وفاضت عيناه عليها حــتى كــادت تشــعر بالأهداب تلسعها.

رنا إلى الجسد.. الرأس، والوجه، والشعر المرسل، والساقين الممتلئين والمشدودتين، وأطرف وكأنما أصابته غفوة وتساءل، عن العلة في أجساد الجميلات التي ترفض الحمل!

رشف رشفة أخرى وابتدرها قائلا:

- ستقضين حاجتك بإذن الله.

انتظر أن تتحدث فتابع دعاءه.

- يا كاشف الضر، اكشف عنا الضر برحمتك.

غلبها الحياء فأطرقت.

- اللهم إنك أنت الشافي وأنت المعافي.

أمال جسده نحوها:

- تحدثي... ولا تخجلي.

– تأخر حملي كثيراً.

أخذها الحياء، فأغضت وصمتت:

– بوحي، بما تشعرين.

– قال الأطباء.. لا عيب فينا

– أنت والزوج

– نعم.

– يا شافي من استشفاه أنعم علينا بالشفاء.

تحدثت عن الزوج، وإهماله لها، وموعد اللقاء، والتهيؤ النفسي لعل الشيخ يهتدي إلى السبب، ويضع يده عليه.

أخبرته – وهي ترمقه خلسة – أنها لا تشاركه، وأن الوقت يمر عليها كأنها مسجونة في سجن من لحم.. وأنها تبكي بشدة بعدها.. وتنهض لتستحم.. وتظل تحك جلدها حتى يكاد يتسلخ، تغمره بالماء، ثم تغرق نفسها بالعطر حتى تخفي أية رائحة له.

غض طرفه، وراح يتمتم:

– يا من لا تحصي العباد نعماءه.

أنعم علينا براحة النفس.

تجنبت نظرته الرامقة، ولهثت وهي تتابع.. أنه وهو يقتـــرب منـــها ترتف، وكأنه سيقبض روحها، ويأتي معه بهوام سوداء تملأ فضاء الحجرة بأزير مخيف.. وأنه بعد أن يركها، ويفك سجنها، يجلس في الصالة يدخن، ويتحدث في التليفون.

علا لهاثها، وارتج صدرها، وقبضت بيدها علـــى طـــوق قميصـــها الزهري.

استوى على المقعد وأطرق.. ثم همس:

– يا من جعل القمر نوراً أنر بصيرتها.

رفعت رأسها إلى أعلى وأطبقت عينيها، وأومأت كأنها تؤمن علـــى الدعاء.

استفاقت قليلا، ورنت إلى الشيخ تحكي أنها لا تراه إلا في الصـــباح، يغادر البيت إلى عمله.. لا تعرف هل نام؟ هل أستحم؟ هـــل أكـــل، أو شرب.. لا تدري عنه شيئا.

حين يغادر تشعر بأن السجن فتحت أبوابه، وخرجت روحها.. منه!!

تريث قليلا حتى تهدأ وابتدرها.. قائلاً:

– انشغلت الروح عن الجسد

وضعت رأسها بين كفيها وصمتت:

– هناك ما يشغلك ويعكر روحك.. ويمنعك.

رفع يديه عالياً.. وابتهل وعينه لا تفارقها

– يا غياث المستغيثين، أغثنا.

مسح لحيته بكفه وكور قبضته ثم بسطها.. وتأملها.

– علينا أن نجتهد لنرمم الروح والجسد

صفق بيده فدخلت المرأة ومعها إناء، وضعته أمامه ومضت.

مسك بزجاجة الورد.. وراح يتلـــو الأدعيـــة والتراتيـــل وعينـــاه جاحظتان مصوبتان إلى الإناء.

طلب منها أن تقترب، فاقتربت، سكب ماء الورد، مسد الكفـــين، والوجه، والذراع، وباطن القدم.

لم يغب عنها وهي تتملاه وتتابعه، وجهه المرتعش.. وتلـــذذه وهـــو يمسد القدم في رهافة ترجفه، وشعرت بصدره يعلو وينتقض كـــأن قلبـــه «يفط» منه، وأن أنامله تفارق القدم وتعلو إلى الساق.

أدركت الموقف، وفسحبت القدم وهبت واقفة.

أنهت في نظرة غاضبة جلستها معه.

وهي تهرول خارجة.. أمالت المنقبة رأسها إليها.

وأطبقت جفنيها.

ياسمين

هفا قلبها إلى المكان فاتجهت إليه.

بدأ لها أنه يناديها فهرولت.

أخذها الحنين إلى النجيل المنبسط، والزهور المتناثرة في كل جنبات المكان.. وجلسات الأنس مع الأحبة، وإلى جلستها المفضلة أمام «الكافية» وتحت دغل من الأغصان، تداخلت ، وتدلت منها أفرع مترعة بزهرات الفل والياسمين.

تاقت إلى الأريج الذي يفوح بعطره على المكان.

ودهمها فيض الأبيض الخلاب.. فولجت.

شملتها هزة، أعقبتها سكينة وهي تستعيد أزمنتها.. المقعد المواجه لحمام السباحة شهد لقاءات، كانت العيون فيها تومض، والرءوس تدنو حتى تكاد تتلامس.

وأضواء الكافقية كانت تشدها بنورها.. فتستكين.

مسحت شعرها وتمتمت:

– كانت شاهدة عليّ..

أدارت وجهها.

ثمة وجوه فلتت من الذاكرة.

وتوقفت عينها عليه.

اختلط الدم بحمرة الخجل وحركة القلب الذي أخـــذها إلى زمـــن الوجفة الأولى.. عرف القلب على يديه كيف ينشغل؟

رأته فكنت قلبها وسترته.

رمقته وهو يتراجع إلى الخلف ويتملى، عيناه ترمقانهـــا وتمعنـــان في النظر، كأنه لا يصدق، وصلتها لمعة وامضة فتهيأت.

لاح وجهها يفيض بهجة وهي تراه يقترب.

أستأذنها فأذنت.. أحست بدفئه فستأنست..

– احتجبت فجأة!

مدت يدها ولمست شعرها المسترسل الناعم.

ابتسم.. وراح يدحق فيها، وهو يقول في صوت متسارع كأنه يخشى أن يوقفه أحد.

وأنه يقصد أنها اختفت فجأة، وأنه ظل يبحث عنـــها دون جـــدوى وأنها تركت في القلب كدمة لا تزال توجعه، وأنها كانت محبـــة، وودوة حتى خالها الجميع أنها لهم.

– وكنت أغتاظ حتى كدت أهجرك.. أو أضربك.

ضحكت زاعقة فاستدارت الرءوس.. لم تبالِ وهمست.

– كنت تغار عليّ.

– كنت أحبك.

زفرت آهة ساخنة حتى كادت تلسعه.

راحت أصابعها تتلامس مع سطح الطاولة.. وعيناها تهيمان.

وحطت عيناه على وجهها.. العين، والحاجب، والأنف المدبب والشفة المزمومة وخصلة الشعر المسدلة على الجبين.

– تزوجت!

– نعم

تفرست في ملامحه، فصادت عيناها هموداً. وترهلاً..

وابتسمت، وفاضت بعطرها..

مع أن قلبها يقودها، إلا أنها لم تضعف.

أتخبره أنها ظلت تنتظر منه الإشارة، وأنه في كل لقاءاته معها لم يوح، أو يومئ.

أدركت أنه، لن يقدم على الأمر فابتعدت.

راقبها وهي تتداخل، وتتكمش كأنها تقي جسدها من طارئ يدهمها.

زوت حاجبيها وهامت، علا صدرها وارتجف..

نهض فخالت جسده يتمايل، مر بالأغصان، ومد يده، قطف زهرات الياسمين وكومها في كفه.. وعاد، فرشها على الطاولة، وراح يرسم قلبا.

كانت تنظر إليه وتضحك.

وكان ينظر إليها.. ويبتسم.

كان القلب ينبض زهرة زهرة.

حمل النبض رائحته إليها فثملت.

وكان ينظر إليها، ويدير رأسه.. وهو يودعها.

لم يطرأ على بالها ما حدث.

كأن الزمان يصالحها.. ويأتي بالأحبة.

***

كانت في زيارة لصديقة لها.
أخبرتها صديقتها أنها ستخطب قريبا.. وحين تساءلت:
– أهو!
زمت صديقتها شفتيها ولم تجب..
أدركت أن القانون الساري هذه الأيام أن يتنحى الحب.. ويظهر المال.

مصيف

بها ولع لموج البحر، وشاطئه الرملي، هنـــاك تتحـــرر مـــن القيود، وتنثر مشاعرها مع زخات الماء. لم يصاحبها يوما ولم يقيدها، أمامها الأهل والأقارب، وعندها رحلات النوادي.. فلتذهب كلما أرادت، ولتدعه يتفرغ لعمله.. «ذلك زوجي الذي ابتليت به» جاهدت أن تتغلب على آلمها، ووحـــدها، واتفقت مع صديقة لها للقيام برحلة سريعة إلى المصيف.

امتد الشاطئ وامتلأ ودغدغت الرمال الرطبة مواطئ القـــدم، لاحـــت الشماسي مبثوثة كقباب متناثرة، والمقاعـــد مطروحـــة علـــى الرمـــال، ومغروزة فيها. في زوايا قريبة ثمة مقاهي مسيجة بأقمشة الخيام، وقـــوائم من الحصير، ومساحات الظل تفرش فيئها.

صديقتها الأرملة، تسكن بالعمارة المجاورة، بيضاء، ممتلئة وجريئـــة. جميلة، تفتن العيون.

رمى البحر موجه، وتلقى صخب الشباب، وصياح الصغار اغرهـــا صديقتها أن تنزل البحر، وتصاحبها، رفضت وتعللـــت بـــأن الشـــاطئ مزدحم، وأنها تخجل أن تتعرى، كما أن زوجها ليس معها.

وحين استدارت تمتمت في ألم.

– ومنذ متى كان معي!

سارت على الشاطئ والموج يلاحق القدم ويرعش الساق..

تناثر المصطافون..

لم تفتها الثنائيات المنعزلة، ولا مطارحات الغرام المختلسة..

ولا الغيمات البيضاء المعلقة بالأفق، ولا القوارب المطاطية الطافية.

مالت برأسها، وخففت عيناها.. وأسهمت.

***

لم يكن قلبها قد ارتعش بعد.. واستطاع هو في رحلة جامعية أن يزاحمها ويتسلل. كان وجهه بريئا، يضفي على وسامته حسنا وقبولا.

لا أنسى وهو يأخذ أصابعي في كفه، أن رجفة شملتني وأن جذبة خفيفة سحبتني إلى ركن ناء لننضم إلى ثنائيات الهوى والعزلة.

ما الذي جعله يقترب، ويفض خاتم القلب، ويلج.

هو الذي ملأ سنوات الجامعة وما بعدها...

جاء، وتواصل، وغطى على كل تربة مررت بها.

أتذكر حديثه في ردهات الكلية، ودروب الجامعة، وشوارع المدينة، ورمال الشاطئ، ومقاهي الحسين، وفي عيون الطلبة، ووجوه البنـــات.. وفي هوامش الكتب..

ضحكت وهي تضغط عينها، وتتذكر خطه الجميل، ونمنمة حروفـــه وجملته التي مهر بها هوامش الكتب.

وردتني، افتحي أوراقك.. وضخي روائحك.

ولا تبوحي به.. ادخريه لأيامنا.

وحين سألته وهي تضحك عن هذا الذي لا تبوح به قال مترنما:

– الحب، وعطر وردتك..

***

أخرجها من زمنها صخب الموج وضجة الصغار، رنـــت إلى البحـــر وموجه، وتمتمت:

– ها هي المياه تداعبني وأخشى أن أقترب.

عاتبتها صديقتها لهروبها، وابتعادها:

– لا تعرفين كيف تمرحين؟

– أنا خير من يفرّ

– وممّن؟

– أنا .. كلما اقتربت ابتعدت.

حتى البحر الذي يغريني أتابّي عليه.

– ولم؟

– أخاف تدافع الموج وظلمته.

مولعة بالسير فوق العشب الذي يدغدغ الحس، أمد ذراعي على المدى وأقفز.. تمنيت أن تخطو قدماي فوق ثلج الموج مثلما أخطو فوق العشب الأخضر!

وهما يجلسان تحت الشمسية بالقرب من خط الماء وجدتاه أمامهما يبتسمان، راحت الصديقة تحدق، ثم نهضت صاخبة وفردت ذراعيها.

– متى وصلت؟

تنبهت للسؤال

بدا عليها القلق، وهو يدم يده يحييها، لم تفتها ضغطة الأصابع ورنو النظرة.

وهما يتحدثان، مالت صديقتها برأسها، وأرجحت قدميها، وأخرجت عواطفها، وغازلت روحها، فردت بكفيها شعرها فطيرته هبة ريح قادمة من موج يصطخب.

– هل أتت معك؟

غمز بعينيه ولم يجب.

أطلت دموع معلقة بالعين فأرجعتها.. هذا الذي يتباعــد ليقتــرب، يسن شوقه ويمتحن.

تأهبت الشمس إلى ارتداء ثوبها الأرجــواني، وفقــدت ســطوتها. تركتهما ومضت.

راحت ترمي بعينيها في كل اتجاه ومشت على شريط المــاء الــذي سكن قليلا ولامس الرمل في هوادة، وذاب الموج وترك ثبجة الرغــوي للعيون تلتقطه.

وهي – بخوفها– تخوض في حد الأمان، صاحبها شعور بالرهبة كلما حاولت، لكنها كانت تخشى أن يخرج من البحــر جــن المــاء يخطفهــا ويخاويها.

ما الذي يمنعها أن توغل قليلا في الماء؟ العمق يســمح بالحركــة.. ستظل قريبة من الشاطئ .. وخاضت، رفعت الساق وخطت، والماء يعلو ويغريها، وتخوض، وهو يتسرب ويلح، كانت ترفع ذراعيها وتتهلل.

تصيح كأنها طفلة، والناس حوله يهللون ويمعنون.

أتكون قد نجحت.

خاضت البحر، ووصلت المياه إلى صـــدرها، واحتـــوت.. لبـــدت برغوها.

غرف الماء ورشه، وهلل وجهه كطفل، جاذبته وهـــي تنثـــر المـــاء. استهدفهما الطلبة، ولاحقوهما بالصفير.

تعجبت كيف لم تواها الرغبة في أن تلهو بالماء، كالصـــغار، تغـــوص وتطفو، تتجاهل الأيدي الممدودة وتفتح ذراعيها.

رمت بعينيها إلى الشاطئ.. كانا يتحدثان، ويقتربان.

لوحت بيدها.. وبسمة تفرش وجهها.

تعجبت وهي تراه يمد ذراعيه.. لاحتا كأنهما في استقامة القضـــبان، وصلابة الحديد.. كأن يبتسم وهو يدعوها.. أن تتقدم.. ولا تخشى فهـــو معها، طالبها أن تستلقي عليهما، وتبدأ في التدريب على العوم.

عليها أن تتقن حركة الذراع، والساق، وشدة الجســـم، ومرونـــة الرأس، وكتم النفس..

أغرها لهجته، وإيحاءاته، وهيئته الجادة.. فضجت بالضحك.. خاضت في الماء، وأبعدت ذراعيه، ورشته بالماء، غرف بكفيـــه المـــاء ورشـــها.. تواصلا، وتداخلا مع الموج.. الذي حماهما ن تلصص العيون..

طوحت برأسها فزعة وعبارة مبللة تصل إلى سمعها..

– أرأيت.. كم هو سهل؟

تعجبت كيف لم تتنبه لوجوده؟ متى ترك صاحبتها وجاء؟

وما الذي جعله يقتحم صخبها البريء ويتابعه؟

– خفت أن يجذبني الموج.

– وأنت على الشاطئ.

ألقت بعينها على المكان.. وأدركت.

– وأنت تعلبين مع الموج ذكرتيني بطفلتي.

تجاهلت نظرته وهو يقول إن خوفها طبيعي مادامت لا تعرف العوم، وأنه لو كان في مكانها لوصله الإحساس نفسه.

كادت تتعثر، فمد ذراعه.. تريثت برهة ثم لامست ذراعه بكفها ولم تضغط.

كانت الصديقة تتهلل وهي تراهما يدبان فوق الرمل..

تسوق

تربعت على مقعد وثير، ونظرت بعيدا نحو الفضاء الرحـــب عبر النافذة، انفرجت شفتاها عن بسمة رائقة وهـــي تـــرى أعلى الشجر بفروعه الخضراء. وأوراقه الزاهية تتمايل بهبة ريح حملت لها رائحة الخضرة، وزخم الصباح الندي.

اكتفت في إفطارها بقطع من «التوست» الأسمر، وعســـل النحـــل. وكوب ساخن من اللبن.. وشعرت بالامتلاء.

أسندت جسدها إلى المقعد، واستقام جذرعها.. وشغل عينها الضوء الساطع في الخارج.. وأصوات تتداخل العصافير تتطاير فوق الأغصـــان، أو ليمامات تتقافز وتخفق بأجنحتها.

حدقت في ظلال الأشجار وتساءلت في تمتمة هامسة:

– ماذا سأفعل اليوم؟

عدلت حمالة الصدر الساقطة، ومدت ساقها، وحركت قدميها.

وصلتها تغريدة موصلة من جوقة العصافير، فارتجف قلبها وابتسمت، وتفاءلت بيومها:

«يا غياث المستغيثين».. وجمت قليلاً.. وتساءلت:

– أين ستقضي يومها؟ هل تذهب إلى النادي؟ أم تمر على أسرتها؟

طوحت بذراعها في الفراغ، ونهضت.

مضت إلى المطبخ، ووضعت فوق الموقد غلايتها المفضلة، محكمة الغطاء، وتمهلت: ماذا ستشرب؟ وبلا تفكير تحركت يدها تجهز البن، والفنجان، وقدح الماء.. وصنعت قهوتها.

خطر على بالها خالتها وغرامها بقراءة الطالع.. نحت صورتها وأجلت زيارتها.. فهي لم تتصل بها، ولم تحادثها على الخلاف مع زوجة ابنها.

فاحت رائحة البن.

وضعت الفنجان على الصينية الذهبية، مع قدح الماء.. وعادت تجلس في مواجهة النافذة، تحتسي القهوة في رشفات متباعدة، وصدرها يستقبل هواء بارداً.

أطلت عبر النافذة، مرقت أمامها غيمة بيضاء، حجبت ضوء الشمس لحظة.

كانت نسمة الهواء باردة، فأنعشتها.

أغمضت عينيها تستدعي زرقة السماء وغيمتها..

حين رفرفت العصافير بأجنحتها وهدلت اليمامات، فتحت عينيهـــا وأرسلتهما إلى الشجر، والنور، والسماء، كأنما تفتش عن سر هذا النغم المختلط الجميل.. وتمنت لو تقبض عليه وتدسه في صدرها..

تنبهت أن الخريف أقبل، يعلن عن وجوده، ويرسل ريحـــه، ويلـــون فضاءه، ويتأبى قليلا.. فهو يعلم أننا نتلهف عليه بعد صيف لافح.. وأننا ندخر له ذكريات وفيرة.

غافلني وأرسل هواءه فلامس جلدي، ووجهي وذراعي، لفني بريحه، وتسلل إلى مسامي حتى وصل إلى قلبي ودلف إليه.

وعادت ترنو إلى الأفق وتردد.. سأغير من عاداتي..

قررت أن تقضي بعض ساعات اليوم في التســـوق.. ســـتبتعد عـــن الأماكن التي تعودت عليها، أو اشترت منها.. لن تذهب إلى كارفور، أو مترو، أو طيبة.. حتى لا تقابل الأصدقاء والصديقات.. ستختار مكانـــا تكون مجهولة فيه.. تتحرك براحتها.. تأخذ، وتعطي، تفاصـــيل، توافـــق وتمتنع.

ارتدت ثيابها وخرجت.

كان الصباح نديا، وحركة الشارع هادئة، والمحلات تتهيأ لاستقبال المترددين..

المكان على غير ما تعودت. لعله يخفف – قليلاً – الملل الذي يلاحقها.

المعروضات مطروحة أمام عينيها.

لم يكن لديها رغبة في شراء شيء محدد. جذبتها بضائع معروضة على الرصيف المقابل للمقهى.. أخذها الفضول وعبرت.. كادت تصطدم بدراجة بخارية، قفزت لاهثة، والراكب يشيعها بألفاظ تخدش الحياء.

وقفت أمام ملابس وجوارب، وحمالات، وأحذية وأدوات زينة، مدت يدها ثم كفتها سريعا وهي تتابع إلحاح البائع.. أدارت رأسها فلمحت المبنى العريق، وأمامه سور صغير.. تقدمت، وجلست، أخرجت منديلا ومسحت وجهها.

رأت الأولاد والبنات يسيرون أمامها.. اثنين، اثنين.. يتضاحكان ويتمايلان، ويتداخلان.. تابعتهم، وشعرت بغصة وغمطتهم على عواطفهم وحبهم.

طن الذباب حولها فلوحت بيدها في غضب.. ضاق صدرها فنهضت وعبرت الشارع إلى ميدان صغير عبرته إلى شارع خلفي.. تراصدت عربات.. الخضار، والفاكهة، والأسماك، والخبز البلدي والفينو والفلاحي.. والأجبان، وغيرها من المعروضات التي تتشابه فوق العربات، وعلى الأقفاص فوق الأرض.

مدت يدها، وانحنت، قلبت بين أصابعها بعض المعروض.. واشترت، تفاحا، وموزا، وتينا وعنبا، وأشارت إلى الخيار والفلفل الأحمر، والطماطم، والخس والجرجير والبقدونس.

كان البائع يضع ما تشتريه في أكياس ويكتم ضحكته..

ويردد في همس لا يبين..

«هانم جميلة، ترتدي ثيابا فخمة وغالية الثمن، وتطلب نصف كيلو من كل صنف».

أخرجت حقيبة ورقية أنيقة، وضعت أغراضها فيها ومضت.

شدها الشرفات، والنوافذ المغلقة.. وتذكرت منزل الأسرة الذي اعتبرته كالسجن، بشرفته التي تطل على حائط صلد.

وها هي تمتلك شرفة تطل على براح عريض، وخظرة وارفة، وشعورها بالحسن والوحدة لا يزال..

متى تنفتح النوافذ، وتطوي الستائر ويدخل الهواء؟

ومتى تفتح ذراعيها وتحضن القمر الذي يغافلها ويرشها بضوئه؟

خطفت عينها امرأة تقف على حنية الشارع العريض.. تباطأت خطوتها، وتملّتها .. الرأس.. والوجه، والبدن، والحقيبة المعلقة بساعدها،

وأكياس سوداء منتفخة بيدها الأخرى.. رأهّا تشد جسدها، ويســـتقيم عودها، وتنظر في اتجاهها.. وكأنما ترسل لها شفرة لعلها تتذكرها.

في لحظة خاطفة تذكرهّا..خيل إليها أنها عرفتها فأقدمت. ابتسمت، فتبسمت خفية، اقتربتا من الرصيف، وتصافحتا وانبسط الوجهان ولاح منها الفرح.

مدت أصابعها ولامست حقيبة المشتريات ونظرت في تساؤل:

– أتنزلين الشارع كثيرا؟

زمت شفتيها وقالت في تكاسل:

– قليلاً

رنت إليها في ودّ – عرفتني بسرعة..

أومأت برأسها، وشغلتها حركة الشارع.

اتكأت على قدمها اليسرى وأراحت أكياسها السوداء على ساقها.

– خشيت أن تتجاهلي!

استنكرت عينها ما قالت:

– أتجاهلك أنت؟

ضحكت فاهتز جسدها البدين:

- عرفتك من مشيتك.

تفرست فيها وقالت:

- لم تتغيري.. كأني تركتك أمس، وليس من خمس عشرة سنة.

امتلأ جسدها وظلت عيناها مدهوشتين..

تذكر أنهما عاشتا زمنا في شارع واحد.. ضيق وموصد في نهايته والناس يعرف بعضهم بعضا، يتشاطرون في المناسبات ويتزاورون.

كانت حديثنا في المدرسة الثانوية.. كان لها صديق.. تلمذ في المرحلة نفسها، يتودد إليها، ويشاغلها، يتسللان، ويعودان، يختفيان ويظهران.. شهد على حبهما الطازج الشباب، وطرقات الحي، وفصول السنة.. حتى جاء من اختطفها، وأصبحت زوجة بعد الثانوية.

ونأى الزمان وابتعد.

جاء اللقاء صدفة، أخذني إلى زمن بعيد، استعيد فترة من العمر، كانت بهجة البراءة عنوانا لها.. كم هو ممتع أن يستشعر المرء تاريخا قديما يقف أمامه ويواجهه.

تنبها إلى التحفظ في الحديث الذي يحكم الموقف.. أين خفة الروح التي اتصفت بها؟ هل بدانة الجسد أثرت في حركتها ومرحها؟

هل من اللائق بعد هذا الغياب أن تقول لها متعجلة وتتعلل بالبيـــت والزوج.

قالت وهي تراقب عينيها:

– تزوجت مبكرا، وغبت عنا.

واجهتها، وهي تضع حقيبتها على كتفها.

– نعم.

نطقتها خطفا، ولاحت انقباضة تمسك بالوجه.

– عندك أولاد.

نظرت إليها في أسى باد.

– لولاهم لابتعدت!

ألقت نظرة عليها وهمست كاللائمة:

– أهملت نفسك

ابتسمت في تحسر:

– أفش غلي في الأكل.

ونظرت إليها في تمعن:

– أخاف إن تركت البيت!

وضحكت لها، وغمزت بعينها:

– الحب.. مضى زمانه.

قبضت على يدها، وأحست برجفة تصل إليها:

– الخوف.. يقتل الحب.

مشت مسرة هاربة ولامست الوجهين.

مدت يدها إليها وسلمت، وكانت عيناها تلمعان:

– سنتهاتف.

. تنبهت إلى أنها لم تسجل رقم الهاتف، توقفت واستدارت.. لعلـــها تجدها.. أدارت عينيها في المكـــان.. واندهشـــت أن تمضـــي صـــديقتها القديمة.. بهذه السرعة.

مراودة

في المساء داهمني رنين الجرس، رمقت الساعة على الحائط.. كانت الثامنة.. كنت أنتظر مكالمة من صديقة لي سافرت إلى الخليج. تعجلت السفر، وكنت نصحتها أن تتمهل قليلا حتى يصاحبها الزوج.. لكنها صحبت ولديها، لتستعد للعام الدراسي الجديد، أما هو فسيلحق بهم.

نهضت في تكاسل، نظرت إلى جسدي في مرآة الصالة، وأسدلت ملابسي، وأزاحت شعري إلى الخلف.. واربت الباب، من وراء السلسلة لمحته.. كان زوج صديقتي التي سافرت.

تعجبت أن يأتي في هذا الوقت، فلا شيء يستدعي الزيارة وزوجي ليس معي!

أبقيت سلسلة الباب كما هي، وظلت الفرجة قائمة بمساحتها الضيقة.. بيته قريب منا، ما تعودت أن يأتي بمفرده، حتى في وجود زوجي.. إن كان موجودا!

قلت كأنني أعتذر:

– انتظر مكالمة من زوجتك عليّة.

فتح عينيه دهشة وقال:

– زوجتي!

– نعم.

– سافرت من أسبوعين ولم تهاتفني إلا مرة واحدة.

زم شفتيه ومال برأسه وهمهم:

– لقد طعنتني.

أدرت عيني فيه، وقلت:

– أنت بخير، ولا أثر للدماء عليك.

وضحكت.

– لو جئت معي لأريتك أغرب وأخس ما اكتشفته.

تمليت في وجهه الساكن الذي تغطى بالوجوم والأسى.

– اكتشافك يخص من؟

– عليّة.. صديقتك.

حدقت فيه، وتململت في وقفتي.

– ستقفين على سر دفين.. لا تتوقعينه.

راح وجهه يرتجف، وصدره يعلو، وتنفسه يختل.

قلت في لهجة تخفف عنه، ولا تخفي توجسي، وارتيابي.

- دع الأمر إلى الغد.

- إن عشت إلى الغد.

ورنا بعينيه طويلا، حتى لاح البياض ينتشر ويجور على البؤبو، حتى خفت أن يصاب بسوء.

- بعد هذا العمر أقبض على هواء.

قلت في نفسي، أذهب وأنقذه من الحالة التي هو فيها الأمر لا يدعو للقلق، أتردد على المكان كثيراً، والجيران يعرفونني وحتى مع غياب الزوجة، فوجودي لن يكون غريبا.. والموقف يتطلب المجازفة حتى أتعرف على السر الدفين الذي اكتشفه وجعل حياته كالهباء.

طلبت منه أن ينتظر.

خطفت حقيبتي، ودسست قدمي في حذاء منخفض الكعب ومضيت في الطريق إلى بيته كانت أضواء الشارع تنسكب متلألئة.

مررت بالسوبر ماركت، والمقلاة.. والمقهى، ومحل «النت كافيه».

سار بجانبي، حرص على أن يكون بيني وبينه مسافة.

ارتقينا الدرجات.. سبقني وصعدت وراءه.

حين فتح الباب، تمهلت قليلا ثم دخلت.. واجهني الصمت، وضوء شحيح يأتي من ركن الصالة.. وتريثت.

لم يكن المسكن غريبا على، فكم أتيت إليه في مناسبات عديدة، وزيارات عادية.. صديقتي كانت تغدق عليه نورا ساطعا. لكنها سافرت.

ضغط على «زر» الكهرباء فغمر الضوء المكان وأتي معه «بالونس».

جلست على طرف المقعد ورفعت رأسي إليه.

– قل.. ما هو السر الذي ستطلعني عليه.

راح يدور في المكان ويردد:

– ليس قبل أن تشربي شيئاً.

قلت في صوت زاعق قليلاً:

– ليس وقته.

جاءني صوته.. يدعوني.

كان في المطبخ.. وصلتني أصوات ارتطام الأكواب.. كل شيء منظم في بيت «علية» تحول إلى فوضى.. ذهبت إليه، أتعجل الوقت. وجدت على منضدة رخامية صغيرة طعاما معدا، وفاكهة وأطباقا مصفوفة.

وقفت جامدة ودار بي المكان.. كتمت غيظي وخرجت.

عاد بصينية فضية عليها كأسان مـــذهبان.. وممتلئتـــان بمشـــروب الكولا.. رمقتني في خطفة سريعة وهو يضعها علـــى طاولـــة مســـتطيلة بالقرب مني.

لم تفته المباغتة التي أرادها، ولا الغضب الذي اعتراني.

– جهزت الخادمة الطعام ومضت.

لزمت الصمت فقال:

– لم تعد لي رغبة في شيء.

– إذن أرني السر الدفين.

نهض وغاب قليلا، وعاد وبيده خطاب.. وقدّمه إليّ..

كانت عينه لا تفارقني.

مددت يدي وقلبت الخطاب.. قرأت على وجه الخطاب عبارة «إلى زهرة الياسمين» لماذا الياسمين؟

تذكرت أشجار الياسمين بزهورها البيضاء وعطرهـــا الفـــراح وأنـــا أجوس دروب حدائق النادي.

استدعيت صورة صديقتي، ووجها الطفولي الـــبريء الـــذي يتـــألق بالجمال .. فضضت المظروف وأخرجت منه ورقة مطوية، مرسوم عليها

زهرة الياسمين.. نظرت إليه أتملاه فراعني لهفته وتحديقه المبالغ فيه، وكأنما يستحثني.

كان الخطاب موجها إلى زوجته.. ومؤرخا من ثلاث سنوات فيه كلام عن أن كاتبه لن ينسى تلك الليلة التي بعث فيها، وكانت هي مفجرة لحظة البعث، وأنها أغرقته في حبها بما يكفيه العمر كله.

دارت عيني سريعا على الكتابة، والتوقيع المبهم والسهم العالق بنجمة، وتجميل زوايا الورقة بالزهور.. تمليت الخط جيداً، وأدركت أنه حديث الكتابة، وأن زهرة الحبر الأسود تنبئ عن حداثته، وأن إمالة الحرف وتزويقه فيه تكلف مقصود.. ومكشوف.

ارتجف داخلي وابترد..

أيكون اصطنع تلك الحيلة لغرض في نفسه؟

أيفعلها وهو الأخ والصديق!!

وضعت المظروف على المنضدة وقلت في صوت حاسم، ومتوتر:

– لا أتصور – أبدا – أن تفعل «علية» ذلك.

– أنت قرأت.

– «علية» جوهرة.

كان الأولى ألا تجرحها في غيبتها.

لم أتمالك نفسي وقلت غاضبة:

- أتيت بي من أجل هذا الهراء.

ضغطت على حقيبتي وزممت ملامحي.

- كيف تفكر بهذا الأسلوب؟!

وتتهم أم ولديك بالخيانة؟

وكأنه أدرك أنني تنبهت إلى شيء ما في الخطاب، وأن الأمر لم ينطل عليّ.. فهب واقفا.

توجست خيفة، فتأهبت للذهاب.

أسرع وأغلق الباب.. وواجهني.

هأنذا في بيت صديقتي، وزوجها يراودني..

كان صوته كالفحيح وهو يتحدث عن إعجابه بي، وشوقه إليّ، وأنه يتمثلني وهو مع زوجته ، وأنني لا أفارقه صباح مساء، وأن زوجي لا يستحقني، ولا يعرف قيمتي.. وقال في رجفة شملته.

- أنا أولى بك منه.

وركبه الجنوح واندفع.

اتقيته باليد... وأدركت أن الأمر يقتضي التفكير وتنحية الغضـــب، واستدعاء الهدوء، وكظم الانفعال.

عليّ أن أتلاطف حتى يمر الموقف.

ما الذي جعل «علية» تسافر وتتركه؟ ألا تخاف عليه؟.. وهل غياب الزوجة في سفرة قصيرة مدعاة لهذا الهوس؟

اندفع نحوي وطوقني بذراعيه، ولامست جسدي أصابعه.

ظللت كاظمة غضبي، أتدافع معه؟ وأتقيه قدر استطاعتي..

لا يجب أن أصرخ، أو أفتح الشباك، وأنادي.. وأولول..

تصوت النتيجة المؤلمة لي.. لو فعلت..

لكنني في مدافعة لطمته بحقيبتي وهددته، وطالبته أن يتعقل وأن يهدأ ويتحكم في مشاعره.

وقف في مواجهتي، قبضت يده على كتفي حتى آلمني.

تحملت ولم أبدها له..

قال وعيناه تتوسلان:

– لماذا لا تحسين بي؟

احتقن وجهه غضبا، وخشيت منه.. أدركت أنني يجب أن أستميله، وأتصرف بما ينهي الموقف دون ضرر فادح.

فأنا زوجة.. صحيح أن زوجي يهملني، لكنه يثق فيّ.. وأنا لم أقترف يوما ما يشينني، أو ينال مني.. بالرغم من تحرري وتجرئي أحيانا.. حتى حبي اللابد في قلبي منذ الجامعة.. ظل بريئا وجميلا، أتذكره كلما تجهمت الحياة..مع أنه هجرني وهاجر...

وهذا الذي أمامي وكياد يفضحني زوج صديقتي وكنت أظنه أخا وصديقا..

ولكن بعض الرجال يتصورون أننا تحت الطلب!

مررت بيدي على شعري وابتسمت.. وضعت حقيبتي على المقعد المواجه ورنوت في إشفاق.. مددت ذراعي واحتضنته في لطف.. داعبت أصابعي شعره القصير..

وبدا أنه لا يصدق، فتسارع، وأنا أتمهله..

قلت، وأنا أتمنى أن يفهم:

– لا تجهض ما بيننا، وتسرع بالنهاية.

تعجب، ولاح وجهه مغضنا.. فتابعت:

– الموقف الليلة لا يلائمنا.. فالوقت يداهمنا.

واغتصبت ابتسامة ندية أثرت فيه.

– ألم تلاحظ، شوق عيني إليك.

خلع جسده كاملا، وبدا مذهولا.. وفرح يهل على وجه.

– لا تتعجل.. دعنا نتفق على ليلة أخرى.

أسرع متلهفا وإن بدا عليه الجزع.

– متى.. وأين؟

– لا يجب أن نلتقي هنا؟

– أين إذن؟

– في مكان آخر.

نطق الكلمة في ضجر واضح فأسرعت قائلة:

– في فندق مثلا.

– في القاهرة!

– نعم.

واختطفت حقيبتي وقلت:

–فكر.. واختر المكان.. ودعني الآن، فأنا أنتظر مكالمة من زوجي.

خشيت منه، فهو يعلم أن زوجي مسافر، وحركته نحـــوي جعلـــتني أسرع في تهدئته وطمأنته.

– التهور سيفسد الموقف فاهدأ.

وابتسمت، واستدعيت هزة للرأس، وتموجا للشعر:

– غدا، اختر الفندق.. وبعدها نحدد الموعد.

توقفت وأنا أنظر في عينيه وابتسم، وأتذرع بالصبر والجلد، وأستنفر قوتي لطارئ ما:

– افتح الباب.

مسك كفي بأصابعه الطويلة المرتعشة، وطبع قلة عليه، وأرســـله.. اتجه إلى الباب وفتحه.

***

تنفست الصعداء، وهرولت مسرعة، كأن ذئبا يطاردني حتى كـــدت أسقط على الدرج لاهثة.. أصابني الدوار وكدت أتقيأ... حمدت الله أن خرجت سالمة.. وظللت الليلة أبكي وألوم نفسي.

طالت الليلة.. لا أدري كيف مرت بثقلها وظلمتها..

طاردني الموقف فرحت أتحسس جسدي كله.. وتنفست رضا أن سلم من الدنس.. أنبت نفس طويلا.. وظللت واجمة، أين غاب العقل؟ ما هذه الغفلة التي انتابتني وأصابتني بالعته؟

هذا الذي منحته صداقتي، خدعني، وجرحني وغرس كراهته في قلبي.. أكان يجب أن أتوجس قبل أن أوافق؟!

يستعصي على النوم، أكاد أمزق ثوبي وأتعرى، وددت لو انهال على رأسي بالحذاء.. هذه الرأس البليدة التي كادت تلوث جسدي.. ألا يكفي جنوح الروح الذي يؤلمني ويكاد يرديني؟! عذري أنني عاجزة إزاء هواها..!

جاءني الغدر من حيث لا أحتسب.

أين المحاذير التي كنت تضعينها قوانين لك؟

أكنت سهلة؟ هل رآك راغبة وغرته لدونة الجسد؟

هل قرأ لهفة في عينيك؟ هل لاحظ الذي بيني وبين زوجي؟

أتكون «علية» أخبرته بشيء؟

يا ربي.. متى أرسو على شاطئ الأمان؟

ضاق صدري.. وزاحمت الخبائث أنفاسي، وثقل قلبي.. وتبلد..

هربت مني البهجة، وتركت مللا موصولا..

أيمكن أن نتغير يوما؟

متى يقترب؟ ويكف عن التعلل بالعمل والسفر؟

أتألم كثيرا كلما أتذكر موقف أسرتي من الزواج.

كيف تعترضين عليه؟ وهو من هو.. الفتيات يتمنينه.

لكنني يا أمي..

لا تكملي..

لا أنسى نظرتها الحادة، وأصابعها المفرودة في وجهي..

أنت ترفسين النعمة.

لا تقوم البيوت على الحب.. لو كل واحدة باحت بحبها

لهدّمت البيوت، وضاعت الأطفال..

لكنني يا أمي لا أقوى على إقصاء صورته...

أشتاق إليه، هذا الذي عضني بحبه ونأى..

لم تشفع لديه أيام الجامعة، ولا سهر الليالي، ولا جلسات الشواطئ.

هل سأظل أسيرة.. لمن ينعم بحياته الجديدة.

ألا يرتدع القلب ويكف عن الحنين بعد أن تركه حبيبه وهاجر؟!

نزهة

كانت الأضواء تتوالى وأغصان الشجر كأنها مدى تلمع.

هبت نسمة جريئة فكشفت وجه القمر، وجعلت ضفة النيل
تحنو على الماء.

لمحت أشرعة بيضاء تميل على يخوت وقوارب.

اتكأت على سور الشاطئ ورنت إلى حركة الموج في رتابتها، وكسا ملامح وجهها تعبير صريح بالرغبة في نزهة ليلية، تمنت لو اصطحبت زوجها وتهادت معه فوق قارب يمخر بهما ماء النيل.

ماذا تفعل معه؟ ومع تذرعه الدائم بضيق الوقت، والسفر الذي يجعله غائبا معظم الوقت؟ متى تشعر بالأنس والألفة؟. وتساءلت والضوء يرتعش فوق الماء.. هل لابد أن نحب لنأتنس؟

مدت يدها إلى حقيبتها، أخرجت نفودها وعلقت حقيبتها على كتفها ونزلت الدرج، دفعت قيمة التذكرة واتجهت إلى مقعد متطرف في القارب الذي تنبعث منه موسيقى صاخبة.

ماذا ستفعل وسط ثنائيات الهوى والهمس ولمسات العيون اللامعة؟ والتوى قلبها.

ها هي تراهم والحب يفيض عليهم بهجة وسروراً.. وستعجز عن منع عينيها من الدمع، وهو يتقاطر على خدها، ويأخذ معه طلاءها ويلوي قلبها.

وغامت ملامحها بحزن يقبض على الروح.. حين خطفت عيناه وجهها أدرك أو وراء وجهها الجميل حزنا دفينا، لمحة حين ألتقيا على الشاطئ مع صديقتهما.

تعلقت عيناها بالماء والقارب يشطره في تيه وعجب. فجأة وصل إلى سمعها همس خافت فأدارت رأسها.

وجدته أمامها وشملتها حيرة وتساءلت مندهشة:

هل كان يتعقبها؟

عاد إلى وجهها نوع من الإشراق فتألقت.. تذكرته..

لا تنكر أنها افتتنت به حين التقت به في المصيف، لا تنسى رقته، وحديثه الحميم، نظرته الدافئة.

تدرك أن حديث الرجال مع النساء يميل إلى الرقة والدفء حين يلجئون إلى المناورة.. وهي تفتقدها.. تفتقد الرقة الشرعية.. وكتمت ضحكتها.

راحت تستعيد ما حدث على الشاطئ، وفي لجة المـــوج، وأخـــذها الحنين إلى صديقتها التي قدمت لها بهجة مختلسة.. ومن يـــدري.. لعـــل حنينها يرتوي!!

ابتسم وهو يدنو منها وقال في نبرة مشجعة:

– لا تفوتك الرقصة الشعبية.

كان النسيم يتلاعب بشعرها، والصخب يشيع في أرجـــاء القـــارب وهي تخطو خطوهما في اتجاه الدائرة التي تحيط بمن يؤدون رقصتهم.

بدا مسرورا بمصاحبتها، تحدث بحماسة، وكان صوته الـــرخيم يـــثير هاجسها.. هل ترخي لنفسها حبل الوداد؟!

وهي تلاحق حركات الراقصين، تعجبت من موافقتها على دعوتـــه، وكأن شيئا في داخلها دفعها إلى أن تلبي هذا الحلم الذي داعبها.

حلم أن تصنع علاقة جديدة بعالمها:

– خشيت ألا تتذكريني.

تساءلت وهو يمد يده، ويشجعها على الحركة:

– أين قريبتك؟

– تقصدين صديقتك.

أومأت، وسكتت.

– مشغولة بأولادها.

أرجف القلب حنين للولد.. مشغولون بهم.. وأنا مشـــغولة بنفســـي ورحمي هامدة لا تنتفض!

.انسلت من حلبة الرقص وعادت إلى مقعـــدها، الغنـــاء الشـــعبي والموسيقى المصاحبة بآلاتها الصاخبة طغى على همس الماء وهمسات العيون الرانية.

اغترفت عيناها الماء، والضفاف، والبنايـــات، ونـــوادي الشـــاطئ، والجسور، والجزر.. وثنائيات الفرح والألم.

وشعرت بوجع في القلب.. لم تتحمل وحدتها وسط هذا الحشـــد ولا اعتذارها للرجل.. فقبضت على حقيبتها ومضت.

كانت الأضواء تنساب في خفوت وهي تسير علـــى الكـــورنيش في طريقها إلى البيت.. شعرت بدفء المقاعد وحرارة الجالسين وتذكرتـــه.. هذا الذي خطف قلبها ونأى.

***

استمعا إلى همس النيل وهامسا، مد يده ومسك كفها وتجاهلا بائعـــة الورد، وتابعا أنوارا مرتعشة من قوارب منفلتة.

كانا وقتها في السنة الرابعة بالجامعة.. يحن إلى الإسكندرية فيأخـــذها إلى النيل.. وإلى الحديقة القريبة التي شهدت انزواءات تثير الحس.

كان قلبي يعزف وقلبه يرقص.. شهد على حبـــها الـــورد والفـــل وأوراق الشجر.. وأروقة الجامعة.. انتبها إلى ماء النيل يرسل صوته.

تنهدت وهي تنظر إليه كأنها تستجدي، لملمت يده شعرها المتناثر.

- لا تحملي هماً.

سافرت عيناها مع النور الساقط في سطح الماء.

- ومن يحمله؟

- أنا.. صدري يتسع.

همها ثقيل.. جاهدت مع أسرتها حتى تعلمت.. فهل يصالحها الزمن؟

شربا البارد، والساخن، وأكلا الفول، والبطاطا.. واشتريا ورداً..

وضع وردة بيضاء في عروتها، فاحت رائحة الوردة فاستترا بعطرها.

- كأننا في كوشة الفرح.

همس متوددا وباسما:

- قولي كوشة النيل.. الكورنيش.

احتدت نظرتها.

- أتكون ليلتي على قارعة الطريق؟

تلفت فرأى الفنادق على الشاطئ تضوي فصاح مبتهجا.

– مثلك تزف في فندق عريق كشبرد.

استدارت وقالت في صوت متهدج:

– هيلتون يليق بي.

اقترب منها يبتسم.

– شرد يناسب حالتنا.

وضحكا.. ظلا يضحكان.. حتى سرت العدوى فضحك الجالسون على المقاعد.. ورددوا شبرد يناسب حالتنا.

***

لكنه نأى.. تركها وهاجر وغمرها مشاعر امرأة ثلاثينية مهجورة. وظلت ليلها أرقة مسهدة.. وغلبتها مشاعر صافية، مستدعاة من الحب القديم.. وراحت عبر ظلالها.. وفيئها.. تتلمس نوماً عصيا.

مسرة صغيرة

ما الذي جعله يزاحمني بالليل ويغاشني.. ثم يقدم لي وردتـــه البيضاء التي كان يكتنزها لي كلما ذهبنا إلى الأورمان؟

في الحلم تعجبت منه.. لم يكتف بالبسمة واللمســـة، تجـــرأ واقتحم.

كنت أظنه كما هو.. بريئا في حبه.. كيف يتجرأ عليّ ويتمادى؟..

أيكون المكان الجديد في البلد الجديد، قد درّبه على الاقتحام؟!

أين هو من تعسيلة العين وخفقة الخجل معاً؟!.. أين حصاته الـــتي كـــان يدخرها ثم يرمي بها عين الماء تحت الجسر فيترقرق الماء ويصيح مهلـــلا.. انظري وجهك مرسوم على سطح «الميّه».

وأتداخل في ملابسي خشية أن يفضحنا صـــوته.. كـــان حلمـــه أن يتخرج ويعمل، ويكتز، ثم يتـــزوجني.. كـــان يقـــول لي ســـآخذك إلى الإسكندرية بلدي، وعشقي، وسكني.

وحين اعترضت على كلمة عشقي، ابتسم وقال في شعف لا أنساه:

– أنت عشقي يا سميرة.

وهو ينسلخ مني ومن حلمه الوالج، ويمضي كالطيف الهارب من نور يولد في الأفق.. قال مداعبا:

– انتظريني سأعود.

وأهب من نومي فزعة.. وأنا أتمتم في وجل.

– أنتظرك أيها الهارب.. بعد كل هذا الزمن!

خشيت – لضعفي معه – أن يأخذني الحلم.. فطويت جسدي ودفعت به إلى الحمام.. كي أغتسل وأبترد..

بعد أن احتسيت قهوتي، قلت لنفسي فلأمضي إلى حديقة الأورومان، وأشهد احتفالها بالربيع.. وأتوقف عند أماكن المحبة التي ذكرني بها الحلم.

***

كانت وهي في الجامعة تفضل قضاء وقت الفراغ بين المحاضرات بالحديقة.. كان يسبقها، ويواليها بنظراته وهي تخطو متوردة، ممشوقة القوام، ذات شعر منسدل.. يراها وهي تلج من المدخل، وهي تتأود في مشيتها الخاصة بالحديقة، وهي تعتلي الجسر في اتجاه «الكافيتريا».. يراقب عينيها وحركة الرأس وهي تطل على قناة المياه تحته، واهتزاز نباتات الماء التي تتمدد على السطح.. يستدير سريعا، يختار مقعده تحت ظلال شجرة باسقة، ويجهز المقعد الآخر.

حين توقفت أمام المقهى لمحته في كنف الظلال، هل واقفا يلوح لهـــا ويبتسم.. غزقما فرحة راحت تسيل مع نور العين حتي كادت تنكفــئ في خطوها، نهض واقفا وتأهب.. رأى استقامتها فعادت بسمته.

ابتدرها في جذل حقيقي.

– تأخرت ربع ساعة.

سوت شعرها المنسدل، ووشدت المنضدة حقيبتها.

تنفست في عمق فكشف الهواء صدرا ثريا.

كان يضع قلبه أمامها ويطالبها أن تحسب نبضاته..

وكانت تضاحكه وتقول:

– إن أخرجته ثانية فلن أعيده إليك.

يستدير ثم يخرج وردته البيضاء المخبوءة ويقدمها إليها..

تهتز حين تزاحمها الرائحة.. ويفتر ثغرها عن بسمة رائقة..

تمر اللحظات سريعة..

تستمهله كي تشرب الساخن والبارد.

وهو يتلكأ حتى تفوقهما المحاضرة.

كان ينسج معها رداء شفيفا.. يلتفان به.. ويطيران..

يصف لها البيت الذي يضمهما..

كأنه عش عصافير، يستر ويحتمي بأوراق الشجر، وتقول له، وهـــي تضحك..

– اختر شيئا ضيقا فالعش فسيح.

ويضحك زاعقا ومسك بأصابعها ويعدها.

– واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة.

وينظر إليها مبتهجا، وتنظر إليه في بهجة.. وعينها تضوي.

– لم يبق إلا شهران..

تريح خدها على كفها وتتأمله.

– ثم!!

يغمس نور عينه في وجهها فيلتمع.

– نبحث عن عش فسيح.

ويضحكان، يضجان بالفرحة.. فتنتفض العصافير فوق الشـــجرة.. وتعزف لهما «زقزقات» من النغم الجميل، علقت في تغريدة كأنها تحاكي العصافير:

– تفاءل.. أبواب العمل ستفتح أبوابها لنا.

نهض وفرد ذراعيه وعبّ الهواء.. ولوح للشجر:

- سنغرف المال ونكنزه.

ضحكا معاً حتى دمعا:

- ستكونين زوجتي.

رفعا رأسيهما إلى أعلى

كان عصفوران يتراودان.. تنتظر العصفورة على فنن يهتز والعصفور يروح، يقفز، ينفش ريشه، ويهف بجناحيه ويحوم.. ويقتحم.. يضحكان.. يغمرها حياء يخضب وجهها وتقول:

- إنه يستعجلنا.

ويبتسم، ويقول في مسرة بادية:

- «هانت.. كلها شهرين».

لكنه نأى.. هاجر وابتعد.

هل تظلين كلما جئت إلى المكان تستدعين الوجه وبهاءه؟ والقلب ونبضه؟

لماذا حين أخرج قلبه لم تحتفظي به، وتتركيه بلا قلب؟

كادت تنكفئ في خطوها فعلا صوها، ونترت يدها في الهواء.. حتى هذه تتكرر!

توقفت، اعتدلت، أدارت رأسها ولم تسأل: لماذا تكرر المجيء؟ لكنها تساءلت: متى تهتدي إلى لحظة سلام تعيد لها صحوها؟

اختارت المكان الذي كانت تجلس فيه، والشجرة ريانة الغصون وعلت برأسها وتسمعت، لم يصلها صوت عصفور واحد، فابتأست.

اختارت ماذا ستشرب؟ فضلت النسكافيه.. هي تحتاج إلى إفاقه، أن تصحو، وتخلع من رأسها حلمها الذي أتى بها.

وهي تسير إلى العامل لمحته.. فازدادت عجباً!

وكادت أن تمضي..

ترى أيتعقبها؟... يحتاج الأمر إلى وقفة

نهضت وتعجلت العامل، استدار، رآها، عاد إلى صحيفته..

توقعت أن يلوح لها أو يبتسم، لكنه لم يفعل فذهبت إليه..

– توقعت أن ترحب بي.. أو تبتسم.

نهض سريعا ومدّ يده.. دعاها إلى الجلوس واعتذر:

– خشيت أن تصديني.

– لم؟

أحرجني انسحابك من حلبة الرقص الشعبي.. وسألها في ودّ يلـــتمس به الرضا.

– هل حدث مني شيء؟

– أنسيت لمساتك الجريئة؟

– كأنك لم تراقصي أحداً.

رأته يطوي صحيفته فبادرته قائلة:

– هل تأتي هنا كثيراً.

– أحيانا.

– لم أرك من قبل هنا.

– الحديقة فسيحة.. آتي، اجتمع مع بعض الأصدقاء نتسامر، نتصفح الجرائد، ونعلق على الأخبار.. ثم نحتسي شيئا.. ونمضي.

فوجئ بها.. في كل مرة يفاجأ بها.. رآها في النادي تمـــارس رياضـــة المشي في «التراك».. وها هي في الأورمان تجلس في المقهـــي.. لا أحـــد معها.. لعلها لا تحتفظ بالصداقات، أو تتحفظ في العلاقات.. لمس ذلـــك في المرتين.. المصيف، ولقاء الصدفة بالنيل.

لكن يقلقه أنها فسرت ما حدث على غير حقيقته، فلم يــرد علــى ذهنه، مناورة ما، لكنه الموقف الذي استدعى نوعاً من المخاطرة.

طلب الشاي، وعصير البرتقال، غزتها دهشة وبه كيثر من أكيــاس السكر.

– كيف تستسيغه؟

راح يفك وريقات من الريحان.. هبت رائحة عطرت المكان. رمقها وهي ترشف عصيرها وتساءل: أين بهجة الوجه التي لمسها أثناء المصــيف والماء يناوشها.

سألها في تودد وهو ينهي شايه:

– يقيم النادي رحلة إلى مرسى مطروح.

قالت في حسم:

– ليس لي في الرحلات.

نظر إليها، فنظرت إليه، ودت لو يدرك المعنى:

– إذا أردت.. سافرت بمفردي، أو مع أسرتي

وصديقاتي القليلات.

تجرأ ضاحكاً وقال:

- لو وافقت لذهبت معك.

غمزت بعينها، ونطقت في مودة.

- آن لي أن أذهب.

وقفت، انتظرت أن يقول شيئا.. مدت يدها، فمد يده، أبقاها قليلا.. سحبتها بسرعة.. وقفت أمامه واجمة.

حيته ومضت فلم تكن تريد لهذه المسرات الصغيرة أن تقودها إلى ما لا تحب.

حافة الغرق

كنت أقف أمام البحر وهو يغمض عينيه من وهج الشمس، والزبد يتلألأ في الضحي. ناوش الهواء خدي وبعثر شعري. يرسل الموج صخبه ويضرب المصدات ويبعث رشـــاته إلى وجهي.

قلت: لعله يناديني، ويضحك لي

نزلت حتى اقتربت من حافة الماء والرمل، ثمة طيور تحملها الريح ويغسلها الرذاذ. ترتجف فترسل أصواتا كزغاريد العرس. أتلـــهف إلى رؤيتـــها. وأحدق في أسرابها، وأرتعش وأنا ألاحق طيورا منفلتة تهوي بالقرب مـــني كأنها تراودني، ووددت لو أفتح كيس الحبوب فأطعمها، أضعها في كفـــي فتلامسني بمناقيرها فأظل أرتجف اليوم كله.

طاردت عيني خضرة الطحالب.. وبقايا الأصداف التي تطل بعيونهـــا المنطفئة، والشباك البعيدة التي تخدع الماء وتأخذ السمك.

جلست على مقعد صخري يتيح لي رؤية البحر وهو يحضن الســـماء ويشدها إليه، يرسل موجه إلى الرمال فيسكنها. يلامس المـــاء قـــدمي، تتقلص أصابعي ارتجافا. تمنيت لو اتجرد من ثيابي وأنزل البحر.. أعـــوم، وأغوص، وأعلو.. لكن المحبين له، لن يغمضوا أعينهم فارتدعت.

لم أنسَ اليوم الذي أخذني الموج إلى القاع والليل يسحب رداءه عن السماء، كانت الرمال القريبة تتشكل بفعل الدوامات. وكنـــت أسمـــع صوتا يشاغلني، وأرى أشكالا غامضة ومتداخلة.

كدت أسهو حتى لطمتني دوامة وراحت تسحبني كجنية، استنفرت طاقتي وانسلخت من قبضة الموج، وحين استرددت بعض عافيتي وهدأت قررت ألا أنزل البحر ثانية، هو الذي خاصمني.. وهجرني... فهجرته.

كيف لحبيب أن يسلط موجه على المحبوب!

أكتفي بالجلوس رانية إليه..

تطوف عيناي بالمكان، أتامل الأضواء المنفلتة مـــن زجـــاج نوافـــذ العمارات القريبة، والتماع الشمس وهي تشـــاكس بضـــوئها الطـــلاء والزجاج.

وأطل عليها...

تغيم عيناي وترقدان فوق شرفة الطابق السادس، وتلبدان، أناشـــد القلب أن يتمهل، ولا يؤلم نفسه.. فهو – حبه القلب – تـــرك المكـــان ونأى، وخلف غصة موصولة.. أربت على القلب وأطالبـــه أن يكـــف ويهدأ.

كان يهوي السير على الشاطئ، والشمس تبزغ مصفرة.

يضاحك الموج، يناجي البحر ويتكئ على خط الأفق. يرتجف وهـــو يسمع صوت الموج يغمر الرمل والحصـــى، والطـــير يخفـــق ويـــرتطم، والشمس حين تخطو صاعدة، يستدير ويلوح بيده وأنا واقفه في الشرفة، يستعجلني أن أنزل.. أنزل ونروح نبحث عن مكان نتناول فيه طعامنا.

***

رأته واقفا قريبا من شارع البحر كأنما يتهيأ للذهاب.. كانـــت قـــد تركته للبحر يبثه نجواه، ومضت هي الأخرى تصطاد رفرفـــة الأجنحـــة، تملته عن بعد فلاح لها ذاهلا.. وذهبت إليه.

كانت الأنوار المنسكبة تضيء وجهه، ولاحت عيناه ساكنتين، نظـــر إليها في وله حزين.

– أين كنت؟

ولما رنت إليه في وجل، التمعت عيناه، وقال في تمتمة مرتجفة كـــأن شفتيه تستعصيان عليه:

– قلقت عليك.

ضحك زاعقا، فأرجفها صوته.

– حدثني البحر عنك.

حدق في عينيها الحانيتين:

– ماذا قال لك؟

خطت خطوة في اتجاه الضوء فبدا وجهها لامعا ورديا قالت في صوت هامس:

– هل آن الأوان؟

بالصمت، آلمه حزنها الذي يطل من العين. تعلم أنه مجبر، فالطريق مسدودة، وهي بعيدة المنال..

وشعرت بألم يتسرب إلى الأوردة ويضغط على الصدر.

خرج السؤال ساخنا، وملهوفا:

– هل سترحل؟

– نعم.

قذف بها سريعا كأنما كان ينتظر، فآلمها..

سادت لحظة من الصمت الموحش.

كانا قد تحدثا في الأمر، وبدا الرجوع عنه غير وارد.. فلماذا ينكئ الجراح.. لم تغفر له، لكنها لن تتذلل، الحب يميته الهوان، وهي لن تهين نفسها، وهو لم يعد مؤهلا لحياة مشتركة.

لم تصدق أنها لن تراه ثانية، وأنه سيمضي ويرحل ولكنها لن تتذلل.

مشت في اتجاه الشاطئ تترنح خطواتها وتتآكل.

انطلق خلفها يرقبها، يلاحظ خطوها، واهتزاز ساقيها وبطء قدميها وهي تنتزعهما انتزاعا.

هل غاب وعيها.. ها هي تمضي إلى الماء تخب في خطوتها.. وتمخـــر موجه. أسرع إليها، قبض على كفها، واحتواها بذراعيه.

تخضلت عيناها، والبحر يلتقط دمعها.

أحست بدمه الحار يلهب جلدها، تركت أصابعه تربت على ضعرها وخدها، وكتفها، وشعرت به يرتجف ويرج صدرها فحجزته.. مســـدت رأسه، وكتفيه وأخذته إلى مقعد. تملّته وابتسمت حـــتي هـــدأ القلـــب، واستراح.. أرسل إليها عينه رانيا. افتر ثغرها وأنار، اخضلت العين حين عاد بصره إليه، فاقتربت منه.

راح ينشج في رجة وهي تحتوي وجهه بكفيها.. وعادا إلى الطريق.

وبدا لهما أن الأضواء انحسرت.

وأنهما لم يريا – معاً – ضوءاً يلتمع ويشدهما إليه.

***

امتننت لأنك كشفت لي خبيئتك. وأخذت دمعـــي وغســـلت بـــه عينيك.. لكنك وليت وتركتني، فضلت الدولار.. وهجرتني.

***

ما الذي جعلها تنهض وتمضي؟.. كانت تنقل قدميها في تثاقل وهـــي تشعر بالوهن والشجن. كانت الشرفة قد أرسلت ضـــوءها فصـــادها، راحت تتصيد الضوء في مساره حتى أوقفها أمام البيت.

لا تدري أين غاب عقلها فجعلها – كالمخدرة – تســتقبل الــدرج وتصعد وئيدا، تتكئ على السياح الحديدي.. وتصعد، حين بلغت الطابق السادس لهثت وانتفض قلبها، ازدادت ضرباته وكاد يزجرها، وينبهها أن المصعد أمامها، وأنه لن يطاوعها إن «ركبت رأسها» توقفت قلـــيلا، ثم سحب القدم جسدها المتثاقل ومضى به صاعدا.

***

كأنني نائمة تسحبني يد خفية وتوقفني أمام الباب، هو الباب الـــذي دلفت منه، يدفعني الهوى، ويوقفني الخجل، وهو الباب الذي مرقت منـــه مزهوة بفعل الحب الذي غطتنا سحابته، وأمطرتنا.

لماذا أعود بعد هذه السنين؟

هل أتوهم الزمن وألج إلى الضباب؟

***

كانت إصبعها السبابة تشير إلى الجرس وترتقب، وتتنحى، حاولـــت فاستعصت عليها، ضغطت «بكلوة يـــدها» عليـــه.. وصـــلها صـــوت

يتسحب، تكاد لا ترى، قلبها لا يطاوعها، ويتمرد عليها، ويرسل نبضــه إلى العين فتعشى.. لم تتنبه إلى السيدة التي فتحت الباب ونظــرت إليهــا متسائلة:

– نعم!

لاذت بالصمت، وبدت كالمنومة، تملّت وجه المرأة الهادئ وشــعرها القصير الممشط بعناية.. وهي تكرر:

– نعم!

كانت المرأة تلبس زيا قصيرا يكشف عن صدر ممتلئ، اندهشت من الموقف وهيئ لها أن المرأة التي أمامها تكاد تسقط، تتمتم بكلام لا يــبين، توجست ثم ابتسمت خفية، فلاح ثغرها وضيئا.. بث الثغــر ضــوءه إلى الواقفة تنتظر، فابتعدت عن حافة الباب وقالت:

– أبحث عنه.

تعجبت المرأة وظلت محتفظة ببسمتها الخفية ونحت غضبها.

– من؟

– هو.

كادت تنهرها وتغلق الباب لكن عينيها ومضتا ببريق مبلل، فخطفت قلبها.

- تعالي.. ادخلي.

ودخلت وراءها.

***

كانت رائحة تهب في المكان تجهل مصدرها، هل تأتي من اصص الورود، أو من الأقمشة والملاءات، والستارة الخفيفة، وحشايا المقاعد؟!

لعلّ الشقة، تبث رائحتها التي اختزنتها.. لكن.. أين كانت حين جئتها؟

في الركن المجاور للشرفة كانت جلستها.. ثمة طاولة صغيرة مستديرة عليها باقة من الورود. تذكر أها رأتها منذ زمن مضى، كان يحرص على أن يضعها أمامها وهو يقدم أكواب الشاي و«دورق المياه»، وبدت لها انحناءته كأنها مغموسة ببسمة تلزمها الهدوء.

تحدث عن حزنه في وطنه الذي ولد فيه وعاش.. كيف له أن يدبر حياة آمنة مع حبيبته؟ كانت عيناه مخضلتين بماء الدموع، وهو يرنو إليها.

- صدقيني.. ضاقت الدنيا في وجهي.

حين رفعت وجهها إليه، تناشده أن يكف، أخذه بين كفيه وظل رانيا. ومحدقا.. حتى ارتجف بعنف وكاد يسقط، أسعفته وراحت تربت على خديه وصدره.

.. ظلاّ يتحابان زمنا، وتمنيا أن يكملا المشوار.

عرفا الطرقات، والشوارع العريضـــة، ودور الســـينما، ومســـرح الدولة، المقاهي وشريط النهر، وشاطئ البحر، ارتقيا الهرم، والبرج.

مخرا عباب النيل في الأقصر.. وراحا يهمسان أحبك.. أحبك.

وهبت ريح ندية من فضاء الشرفة، فجمعت الرائحة ووضعتها أمام أنفها.. حتى كادت تذوب.

كانت السيدة – وهي تتأملها – تقف بجـــوار المنضـــدة الدائريـــة، ووجهها تجاه الشرفة.. قالت وهي ترنو في ود:

– سأصنع شاياً!

حركت رأسها وابتسمت:

– تحبين الشاي!

رفرف رمشها مرتعشا.. وأومأت.

وضعت السيدة زجاجة مياه باردة، وكـــوبين، وعلبـــة مناديـــل.. وانتظرت..

.. استعادت حالتها وغلبها الخجل، وقالت:

– المتاح.

ارتج جسدها في ضحكة منغمة:

- كله متاح.

ومالت عليها تنتظر..

فكت شفتيها المزمومتين وهمست كأنها تستجدي:

- قهوة سادة.

المرأة الشابة تقف عند الثلاثين، تزم صدرها بيدها، وتتنهد..

أطلقت آهة ساخنة جعلت السيدة تجلس في مواجهتها وتنشغل بها..

أخذت رشف من الفنجان ووضعته في أناة.

ضيقت عينيها وقالت:

- لا تقلقي.

وغشيها الحياء وتداخلت..

ساد هدوء مغلف بالضوء يأتي من الشرفة.

- أخذني الحنين.

حدقت فيها السيدة وطالبتها أن تشرب قهوتها.. وتمتمت:

- الحياة تتجدد.

نظرت إلى الفنجان.. وأسهمت.

لاحظت السيدة الشرود الذي يطل من العين.. نصحتها في ود:

– جددي حياتك.

غمرتها سكينة غائبة، فتناولت الفنجان بأصابع رهيفة وابتسمت إلى السيدة التي ضحك وجهها:

– تبحثين عن أحد!

رفعت رأسها وطوفت بعينيها:

– كان هنا ورحل.

دققت النظر فيها وهي تضغط على الفنجان:

– أتعرفينه!

خرجت منها الكلمة في لهفة مباغتة:

– نعم.

مدت يدها وأخرجت منديلا ورقيا:

– باع لنا الشقة وسافر.

زمت المرأة الشابة عينيها، وبدا غضبها يتسرب إلى ملامحها:

– رحل!

مسحت السيدة قاعدة الفنجان وهي ترمقها:

- كان متلهفا على السفر.

أبطأت في حركتها، كأنما تنتظر رد فعلها.

- لم يجادلنا كثيراً.

أمعنت فيها النظر وقالت متأنية.

- رضي بما عرضناه عليه.

زمت صدرها وارتجفت وهي تضع الفنجان في حركة مرتجة:

- كان متسرعا.

- سألت عنه.. فأخبروني.

وتنهدت، وغامت عيناها:

- لم يخبرني، لكنني علمت.

قلقت السيدة عليها، وهاجسها ارتياب وخوف:

- وعدك بشيء!

لم تجب..

أخذها الصمت الراجف، وأحنت رأسها.

بادرهما السيدة وسألت في توجس:

– أساء إليك!

خرجت منها آهة حارة وهمست:

– كان حبنا عفيفاً لكنه ترك سكينا في قلبي.

. تضاحكت السيدة، وقالت تخفف عنها:

– بعض الرجال يفعلون ذلك.. سأعيدها عليك..

جددي حياتك..

***

كان يتحدث مبهورا عن البلد البعيد الذي يتمنى الرحيل إليه، لم يمل التحديق في مياه البحر، وهو يجلس تحت الشمسية على الشاطئ «يكبش» الحصي ويرميه به، ويرفع رأسه ويمد يده إلى السماء يلمس زرقتها ويقول:

– في الشاطئ الآخر، ترقد المدينة التي أهفو إليها.. ويميل بوجهه، وصوته يشي بحدة غاضبة.

– هناك يحس المرء بإنسانيته.

وتتملاه، ترصد حالته، ونشوته الجامحة، عيناه تهيمان في البعيد وتخترقان الأسيجة حيث الفضاء الرحب والشاطئ البعيد.

باغتته قائلة:

- هل أصاحبك؟

يغمس عينيه في لجة الماء المالحة ويرمقها غافيا:

- من أين نأتي بالمال.. يا حبيبتي!

تدرك أنه يحلم، تتعايش مع هدوئه وغضبه، وتعذره..

متقدم في درجته العلمية.. لكنه عجز عن الحصـــول علـــى وظيفـــة مناسبة.

***

تملت السيدة وجه ضيفتها، وأحست بالأسى ينتقل إليها فارتعـــدت ونهضت، ووقفت أمامها. مدت يدها ومسحت شعرها، وربتـــت علـــى خدها. قبضت على يدها الساكنة في حجرها وجذبتها.. نهضت قائمـــة، وولجتا إلى الشرفة.

خطف البصر طيورا محلقة، وموجات ترمي زبدها، ومصدات قليلـــة تبح جماح البحر.

.ضعت السيدة يدها على كتف المرأة وقالت:

- بم أناديك؟

- سميرة.

– وأنا مريم.

***

ظهر الماضي فجأة حين رأيت الشرفة.. كثيرا ما جئت إلى الإسكندرية، ومررت أمام العمارة كلما نزلت إلى الشاطئ ولم أرفع رأسي تجاه الشرفة، لم يشغلني الأمر، تجاهلته.. فلماذا أثار الموج الذكري وأعادني إلى الماضي؟

مر زمان يقترب من خمس سنوات، تزوجت فيها.. ولم أنجب. أفتح قلبي على سعته للصغار، ألثم وجههم، أدس في جيوبهم الحلوى، وحبات الشيكولاتة.

لم أتوقف كثيرا حين هجرني، وهاجر. نزعته من زمني وتركته لزمنه الجديد، لم يرسل لي رسالة واحدة، تقصيت أمره، علمت أنه تزوج من إيطالية تكبره بسنوات، وتمتلك محلا للأغراض المترلية.

قلت لنفسي.. على أن أهيأ لليوم الجديد..

وكنت أخاصم نفسي كلما حنت، حتى كدت أنزع قلبي وأغاضبه.

فلماذا هذه المرة يراوغني الوجه!

يلح.. ويتسلل!

وضعت السيد يدها على ضيفتها وأحاطتها، شدتها إلى صدرها وقبلتها.

قالت وبسمة تضيء وجهها:

- دخلت قلبي.

أطبقت عينيها وتمتمت:

- وأنت.

ورنت إلى السيدة فجذبتها ملامحها الهادئة:

- معك أحد!

- أعيش بمفردي.

تجرأت وسألت:

- لك أسرة.

غامت عيناها، وشدت وجهها عبسة غضنت ملامحه وأحزنته:

- زوجي مات من عامين.

وابنتي هاجرت إلى الغرب.

- بمفردها!

- مع زوجها.

أحبت أن تطمئن على السيدة ذات القلب الــرحيم فتســاءلت في حياء:

– تزورك

تنهدت فشعرت بحرارة أنفاسها:

– تأتي مرة كل عامين، محملة بالأشواق والهدايا.

وضحكت في امتنان، فاهتز صدرها ولاح ثغرها لامعاً.

– ينتظرها الأقارب.. والجيران.

– ألا تزورينها!

أسرعت في صوت مخطوف، حاد:

– لا.. لا أحب السفر.

***

حكت السيدة أن الشقة التي تسكنها باسم ابنتها، وأنها تحرص على استضافة أقاربها في الصيف، ويتردد عليها أولادهم أو بناتهم في الجامعــة إلى أن يلتحقوا بالمدينة الجامعية، أو يؤجروا سكنا.. وأنها حريصــة بعــد عودتها من عملها الذي أوشك أن ينتهي، أن تــذهب إلى دور الرعايــة الاجتماعية، تقدم خدماتها، أو تمر على دور المسنين، بل تقضــي وقتــا طويلا معهم

شعرت بعد وفاة الزوج بقسوة الوحدة، والوحشة التي تسكن معها في الشقة، وبالجدران التي تتقارب حتى تضغطها فتهب فزعة وتمضي إلى الشرفة.. يجذبها الموج، ويدعوها البحر، فترتدي ثوبها وتقفز إلى الشارع، يضحك لها البحر حين تلامس قدماها رمله الناعمة وحصواته المدببة.

وجهها النحيل، وعيناها حانيتان.

ظلت ساكنة ثم قالت:

– تلك هي الدنيا.. حضور وغياب..

كان الصليب يتدلى في بهاء فوق جدار أملس بلون زهري، ومحاط بورود اصطناعية.. متوردة.

تراه يتمايل حين تخبط الريح جدران وحدتها، يصدر نغما كالترانيم، يلج سمعها ويسيل في أوردتها فتضيء.

عرفت أنه يتشكل، وأنه يشف. كان يأتي بوجهها، وكنت أراه جميلا ورقيا كما عاهدته وكنت أدقق في بعض التغيرات التي حلت بجلد الوجه، والجفون، والرقبة.. كان يتأرجح كأنه يضحك ويقول لونه الزهري يضوي..

– تملي فيه.. هو الوجه.

وكنت أحتضنه بقلبي وأذوب فيه وأرتقي.

وكان يضحك وهو يتأرجح:

– أتيت به لتهدئي.. وكتمت أنفاسي وأنا أراه.

هذا الوجه تركني وهاجر..

وكنت حين أضيق بوحدتي، يأتي به، أروح أدور أمامه وأمد ذراعي، أود أن آخذه في حضني وأقبله، لكنه هاجر وتركني!!

ظل هو فوق داره الأملس بلونه الزهري يتجلى في بهاء ويبتسم.

كانت تنظر إليه وهو يخطف عينيها ويمسد جفنيها ويكفكف دمعها، ترجها تنهيدة وتنفرج شفتاها وتقف في سكون ذاهلة، وقلبها ينفتح على أوردته وهي تتمتم.. سعيود!

***

– هيا بنا..

مضت «مريم» تجاه الباب وهي تربت على كتفها، وتستنهض بريق عينيها وشبح بسمتها التي سحبت شفتيها وأبانت عن ثغرها الوامض.

لا تدري أين تذهب بها السيدة؟

تشعر بألفة معها، وكأنها تعرفها من زمن..

زيارة عبارة تجري فيها حديث قصير.. زيارة تعودت عليها أحيانا لتخفف عنها ضغوط الحياة.. جاء منفردة.. كعادتها غالبا.. لعلها تجد

مخرجا من الهم الذي يصاحبها.. وحيدة هنا، ووحيدة هنـــاك. وزوجهـــا الذي لا تراه لا يسأل عنها.

وها هي في صحبة امرأة مجهولة، وطيبة، وودودة.

إنها الشرفة التي أوقعتني في يارة لم تكن على البال..

ما الذي جعله يلج القلب، ويقبض على الخيال بعد سنوات جـــرت فيها مياة كثيرة.. لم يخطر على البال أن أمضي كالمخدرة إلى مكان كـــان يعيش فيه.. شقة من غرفتين وبهو متسع بشرفة تتلقـــف هـــواء البحـــر وتختزنه..

***

اجتازتا شارع البحر..

ناداهما صوت البحر وعبث الموج..

كانت السيارات تتقاطر على امتداد الطريق، وهامات البشر محتجزة خلف الزجاج، وعيونهم مصوبة إلى الأمام.

قبضت السيدة على كفها، أحست برعشة الجلـــد وأدارت رأســـها وابتسمت، كان هواء البحر يتمادي ويلثم العينين والوجـــه، ويطـــوح بالشعر المسترسل فيبعثره.

جلستا فوق حجر عريض من الأسمنت كأنه بقايا صخور.

وضعت السيدة يدها على ركبتها وقالت:

– لا تزمي عينيك.

تنبهت سميرة وحركت رأسها.. وصمتت.

– إن فعلت.. يغضب البحر منك.. وهومت.. أخرجتها قوارب الصيد من حالتها.. كانت تلوح وتختفي خلف الصخور، حياها الموج برذاذة فشهقت.. وضجت السيدة بالضحك.

ظلتا جالستين زمنا.. تنظران إلى الموج وتعباه هواءه.

ظل هو فوق جداره الأملس بلونه الزهري يتجلى في بهاء ويبتسم.

كانت تنظر إليه وهو يخطف عينيها ويمسد جفنيها ويكفكف دمعها. ترجها تنهيدة وتنفرج شفتاها وتقف في سكون ذاهلة، وقلبها ينفتح على أوردته وهي تتمتم.. سيعود!!

***

– هيا بنا..

مضت «مريم» تجاه الباب وهي تربت على كتفها، وتستنهض بريق عينيها وشبح بسمتها التي سحبت شفتيها وأبانت عن ثغرها الوامض.

لا تدري أين تذهب بها السيدة؟

تشعر بألفة معها، وكأنها تعرفها من زمن..

زيارة عابرة جرى فيها حديث قصير.. زيارة تعودت عليها أحيانا لتخفف عنها ضغوط الحياة.. جاءت منفردة.. كعادهما غالبا.. لعلها تجد مخرجا من الهم الذي يصاحبها.. وحيدة هنا، ووحيدة هناك. وزوجها اذي لا تراه لا يسأل عنها.

وها هي في صحبة امرأة مجهولة، وطيبة، وودودة.

إنها الشرفة التي أوقعتني في زيارة لم تكن على البال.

ما الذي جعله يلج القلب، ويقبض على الخيال بعد سنوات جرت فيها مياة كثيرة.. لم يخطر على البال أن أمضي كالمخدرة إلى مكان كان يعيش فيه.. شقة من غرفتين وبهو متسع بشرفة تتلقف هواء البحر وتختزنه.

***

اجتازتا شارع البحر..

ناداهما صوت البحر وعبث الموج..

كانت السيارات تتقاطر على امتداد الطريق، وهامات البشر محتجزة خلف الزجاج، وعيونهم مصوبة إلى الأمام.

قبضت السيدة على كفها، أحست برعشة الجلد فأدارت رأسها وابتسمت. كان هواء البحر يتمادي ويلثم العينين والوجه، ويطوح بالشعر المسترسل فيبعثره.

جلستا فوق حجر عريض من الأسمنت كأنه بقايا صخور.

وضعت السيدة يدها على ركبتها وقالت:

– لا تزمي عينيك.

تنبهت سميرة وحركت رأسها.. وصمتت.

– إن فعلت.. يغضب البحر منك.. وهومت.. أخرجتـــها قـــوارب الصيد من حالتها.. كانت تلوح وتختفي خلف الصخور، حياهـــا المـــوج برذاذه فشهقت.. وضجت السيدة بالضحك.

ظلتا جالستين زمنا.. تنظران إلى الموج وتعبان هواءه.

قالت السيدة وهي ترمي بصرها ناحيته، وتتملي غيمات تتهادى.

– لم أزر البحر من زمن.

أمالت إليها رأسها، فقرأت ملامح وجهها الساكن.

– يكفيك رؤيته من الشرفة

فركت أصابعها، وأدارت رأسها تجاه الشرفة.. وغامت عيناها.

– كنا نغسل همنا فيه..

أومأت برأسها وهي ترقب السيدة في لحظة الشرود..

– البحر يحب القلوب الخالية من الهم.

رمقتها دفست راحتها في حجرها.. ونكست رأسها.

***

بدا صوت السيدة مولها بحديث يتندي بالحنين.. وبدم يكاد يطفر من وجهها..

– كان زوجي «ملاك» يحبه ويداعبه..

وكان البحر يعرف ذلك، ويغدق عليه موجه..

وتمد كفها وتفرد أصابعها في وجه البحر.

– تقدس في الملكوت.

كان يجلس أمامه طويلا، حتى يمل البحر.. فيتركه ويسحب موجه.

وضحكت «مريم» فارتج صدرها وتألقت بسمتها:

– كنت أغار منه..

وتبسمت «سميرة».. وافتر ثغرها وامضا:

– كنت تتركينه له..!

– لم أتركه له.. كنا نتغذى، ونشرب الشاي على قهوة قريبة من الشاطئ نتمدد على الكراسي وندع جسمينا لزخات الموج، وحمام الشمس.

وتنظر إليها وتصمت..

تحمل أنفاسها آهة ساخنة، وتتنهد في شجن...

تعاود النظر إليها. وتبتسم في خجل وردي جريء!.

– كان البحر «يسلطة» على فلا يتركني حتى يهدني.

وابتسمت، مدت يدها، والتقطت بعض الحصى، وراحت ترميها في وجه البحر واحدة.. واحدة:

– حين كان زوجي ينتهي.. من هديره، كنت أحس أن البحر يهدأ، ويطوي موجه ويستكن.

حدقت في الفضاء الرحب، وتهدج صوتها، وتندت عيناها.

– لكنه مضى.. تركني ورحل..

وضعت يدها على كف «سميرة»، وهي ترمقها في أسي.

– الوحدة قاسية..

***

أحكمت «سميرة» ثوبها، وأرسلت قدمها يعبث في الرمـــل المبلـــل، وتركت شعرها لرذاذ البحر يرجله، خطفت عيناها طائرا من طيور البحر يهوي في الماء ويغوص، مدت رأسها، وتعجبت أن يخرج الطائر بســـمكة صغيرة وكأنها كانت تنتظره!

تنبهت إلى السيدة وخرج منها صوت ممسوس وواهن.

– نعم.. الوحدة قاسية.. لا تحتمل.

تملت «مريم» وجهها ومدت أصابعها تفرد لها ملامحها.

– معك زوجك.. من أين تأتي الوحدة؟

لم تقو على شد عينيها من غيمة السحاب الأبيض وتمتمت كأنها تحدث نفسها.

– دائما على سفر.

وانتفضت فجأة كأن شوكة ولجتها فارتعدت.

– كأنه يهرب مني.

– سافري معه.

فضلت ألا تبوح، ولزمت الصمت، كان يفرض أن تصاحبه بحجة أن عمله يأخذ وقته، يخشى عليها، من الوحدة.. والملل.

سوت «السيدة» خصلة من شعرها المتطاير وقالت:

– حين يغيب.. تشتاقين إليه.

– جفت العاطفة.

– لهذا جئت؟

تنهدت فلاح نفسها صاهدا كأنه البخار، واكتسى وجهها بحمرة مدممة وكأنها وقعت في لحظة صدق طارئة.

– كلما أحسست بالوحدة.. أضع ثيابي في حقيبتي الصغيرة وأرحل يوما.. أو يومين.

– أراك بمفردك.. أين الأولاد؟.

حمل صوتها ألما ينزف على رموش العين، لكن عينها استعصت فلم تدمع..

– لم أنجب.

رفعت السيدة رأسها، وطوحت بذراعها، وفرشت أصابعها في وجه البحر، وقالت في أسى:

– وما الفائدة.!

أنجبنا وهجرونا..

***

بسطت كفها على الرمال، ومرت بأناملها على منحنياتها الخفيفة، التقطت قوقعة، نفضتها من حبيبات الرمل ومسحتها فبدا جمالها زاهيا.

تناولتها.. وتملتها، ثم أدارتها بين أصابعها وقالت:

– نحن مثلها!

تساءلت عيناها.. وارتقبت:

– لا تندهشي.. إنه الفراغ انتفخت فيه أحدث صفيرا مرعبا...

قربتها من الفم، ومررت هواءها، خرج صـــوت هـــامس، متقطـــع وواهن. بادرها السيدة قائلة:

– صوتك يفضحك.

وضحكت ومدت يدها، وضغطت على كتفها:

– كان يملأ الفراغ معي.

لكنه مضى.

آلمها حزن السيدة.. مع أنها حرصت على إخفاء مشاعرها، وظلـــت تتأملها وهي تقول:

– بدون المحار.. تصبح القوقعة للزينة.

غالبها الموقف، فادعت ضحكة ارتج لها صدرها:

– نحن كالقوقعة

– بلا محار

– للزينة

وأمعنت في ضحكتها، وقالت صاخبة:

– وليتها جميلة.

***

راح البصر يرنو في كل اتجاه، ثم رسا على حافة الشرفة.. كان يحجل فرحا وهو يمرق إلى المطبخ ليجهز الشاي... أمام حجرة النوم يتوقف، ويضع يده على أكرة الباب، ويغمز بعينيه.. وكانت تزم شفتيها غضباً..

لم تفكر لحظة أن تتساهل، ولو أثقل الحب القلب وضغط عليه!

يمد ساقيه على المقعد الخشبي.. ويحلم... يدفس إصبعه في الفراغ ويهيم.. الشاطئ الآخر يحقق الحلم.

وتضحك، وتغمز بعينيها، وقلبها يرتجف.

– أنت بحلم.

الهواء يدفع الكلام وينثره..

يخبط بيده على الحافة، ويتكئ، يستقيم جذعه ويتوهج، يجادل... ويراوغ يشير إلى الأفق البعيد.

– هو المكان الحلم.

ويظل جسده قائما، ومتوهجا..

وظلت – هي– تراوغ نفسها.. وهي تلتقي به، على الشاطئ، فوق الرمال، وتحت الشماسي، وعلى مقعد في مقهى بمحطة الرمل، أو في محل

الكشري، أو محل الفول الشهير، أو في دور السينما يشهدان فيلماً رومانسيا ينتهي بالرحيل.

يقف ويطل، ويشير إليها وهي تسير بجوار سور الكورنيش، والشمس حين تسطع يقترب، لا تسمع لخطواته وقعا... يدنو ويقدم لها زهور الفل البيضاء، تسبق رائحتها حركة الهواء فيفيض المكان بالعبق.. تقرب الزهرة البيضاء من أنفها وتستنشق، تمررها على الجبين والخدين وترتعد.

تراه يرنو إليها والموج يرتطم ويدفع زبده:

– إني راحل.

فلت القول فجأة.. ثم صمت..

تدحرجت عيناها وراءه وهو يرفع قدميه بطيئاً.. ويبتعد..

.. و.. كانت الرياح تحمل زمجرة الموج..

والنجوم تلمع.. وتسقط هاوية..

***

كانت الشمس تميل نحو الأفق وتجمع ضوءها، وتصبه فوق السيدة والمرأة الشابة. اصطخب الموج، ورأت الشباب بأردية البحر كأنهم أسماك ملونة تعكس لمعة الضوء، والفتاة البيضاء التي دفعها الموج تقطر ماءها على الشاطئ، ويفتح الرمل مسامه ليتلقي القطر، ورائحة الفتاة.

حدقت السيدة في الفتاة وزمت شفتيها، وشعرت بالوحـــدة وســـط صخب البحر وصيحات المصطافين.. وتلامس الأجسام العارية.

مد البحر موجه لهما، فارتعشتا.

قفزت السيدة وزهوة الفرح تغمرها، سحبت سميرة من يدها ومضت بها إلى البحر، تدافعتا ثم نزلتا. مس الماء القدم فانزلقتا معه.. والموج يحتفي بهما ويصطخب، يتدافع ويرسل زبده.

يدفعان بجسديهما حد الموج، فيعطي حياء وينحسر.

واختفى البدن في غواية الموج، لم يظهر منه سوى الــرأس والشـــعر المبلول المنسكب، والوجه الذي يرتج مرحا.. والموج حين يعاند يفـــرش الثياب على وجهه ويستدعي الذراع العارية.. ويغريما فتمعنان في المرح.

ظلت خبطات الأذرع تتوالى على سطح الماء، حتىغزا القلق القلوب والموج يمعن في سحبهما إليه..

وشق السباحون عباب الماء.. وامتدت الأيـــدي تســـحب المـــرأتين وتخلصهما من قبضة الموج.. وشبق البحر.

خرجتا ذاهلتين.. ورعشة متواصلة ترجهما رجا حتي عجزتـــا عـــن التنفس. التصقت الثياب بالجسد فشفت معالمه، الرمال التي تسوخ بـــين الأقدام تكاد تسحب الروح.

وكان البحر ينظر إليهما.. ويطوي موجه.

جلستا.. لم تصدقا أنهما نجتا من البحر وموجه.

امتدت الأيادي بالمناشف، وأكياس الورق، وأكواب المياه وبالشاي الساخن حتى استردنا بعضا من عافية غائبة.

شكرتا هؤلاء الذين أعادوا لهما وعيا كان غائبا..

وتساندتا..

راحتا تنقلان الخطو حثيثا نحو الشرفة.. والهواء يرسل برودته ويمعن في التصاق الثوب.. ارتجف البدن، وارتعش القلب.

تهتز السيدة في مشيتها، والشمس تنعكس على وجهها، تلتمع عيناها، ويتجلس ماؤها بارقا.. ثم ينحدر دمعات ساخنة.

تقبض بيدها على يد المرأة الشابة وتقول في صوت كالنواح:

– كدنا نغرق..!

ودعت سميرة بحرها، وأعشابه اللزجة، والوجه الذي يطوي ملامحه.. والأفق الذي يتدحرج كبالونة.

وخلصت قدميها من الطحالب.. ومضت.

كلّة بيضاء

رأيتني في خلاء عريض به النخيل والزنـــابق والشـــجيرات الخضراء، لمحت مبنى يزدهي بأنوار تضوي، تحيط به من كل جانب، والثريات تتدلى أمام المدخل وفي البـــهو الفســـيح، أدرت عيني على الحاضرين بـــدوا لي كـــأنهم ينتظـــرونني. ومضات عيونهم تشي برغبتهم..

أبصرته يتقدمهم، تفرش البسمة وجهه، ويده تبادرني بالتحيـــة. مـــددت يدي، استقرت كفي في يده.. شعرت بحرارة أرجفتني.

أرمق نفسي في زاوية المرأة في صدر البهو الفسيح، فأراني عروســـاً ترتدي ثوب زفافها.. يخلعني من العيون، ويأخذني بعيداً.

شعر به يجتاحني وأنا العطشى التي لم تعرف للبدن رياً

فرحت أنه عاد، وأنه أوفى بوعده.

جاءت عودته كماء المطر يروي الأرض، ويسقي العطشان.

لم يخبرني ، فاجأني، خشي أن أضيع منه فترك غربته وعاد.

راح يحدثني عن غربته، وعن صورتي التي تلونت بدم القلب، وكيف طوى الليل والنهار، واختصر الزمن، وأتى محملا بالشوق والهوى. أحدق فيه مبهورة، لا أصدق عودته، لم أتوقعها، ظننته عاقا وجاحدا.

كان حديثه يشبه كلة بيضاء مطرزة بورود حمـــراء.. أعجـــز عـــن مجاراته، لم أعد طلقة اللسان.. أخرسني من امتنع عن الكلام معي.. هـــذا الذي ساقتني إليه أمي.. سامني الصمت وانفرد بحجرته.

أحن إلى حلو الكلام، وانفراجة الشفاه، ولمعة الثنايا.

تتراءى لي الوجوه في المكان الفسيح، وضيئة، مرحبـــة، تتحـــادث وتتباسم، وترسل العيون تلامسني.

وها هو الذي رمي شصه وشد السمكة يصطادني من جديد.

منحني الضوء، والقرب، والفرحة فرحت أنظر إليه وأبتسم، ألاصقه في رشاقة فيلتصق، أتلفت كزخة العطر فأراني في المـــرأة تتيـــه بالحســـن والبهاء. أين كان هذا الحسن؟ في أي مكان اختبأ؟ من احتجزه؟ ووضعه في القبو المظلم؟

وها هو يعود ويمد يده، يخرجه من قلبي ويرشه عليّ، يتـــألق الوجـــه ويزدهي بالحسن، أكنت أنتظر تلك اللحظة التي تـــأخرت؟ تمنيـــت أن يجالسني ونحقق معا لذة تقت لها بعد طول غياب.

لا تزال يده تقبض على كفي، وأصابعه تلامسني، تسيل الـــدماء في العروق فيحمر وجهي وتسري البهجة في ملامحي.. هي هدية السماء لي.. أن يعود بعد غياب هذا الذي هاجر وابتعد.

وقبضت على يديه..

رحت أشده من يديه. أحاول أن أخرج به، أبتعد عن العيون، لم يعد لدي وقت أضيعه، على أن أنتهز اللحظة وأعوض الغياب.

يده في يدي وأنا أمضي به إلى الباب لننطلق إلى أماكن البهجة القديمة نرتوي، ونلتمس منها المدد.. يا أم هاشم مدد. عند الباب وجده قائما يستند إلى جانب الحائط. وجهه وجه قرد.. وقفت مبهوته، ولجني خوف فسللت يدي بقوة، كدت أسقط.. لم أجده.. أين ذهب.. عاد لخديعتي ثانية فرّ مني وهرب.

وقفت أمامه حائرة ومضطربة، رحت أستدعي قرة هاربة فأبت.

أكاد أشرف على هوة سحيقة. خلته يمد يده إلى ويدفعني إليها.

انتفضت صارخة.

يدي تنقبض على خواء، ورعب جارف يحتويني.

نهضت من فراشها، تجفف عرقها، ومضت، فتحت الثلاجة وأخرجت زجاجة مياه. شربت، صبت قطرات على راحة اليد، مسحت وجهها.. وتساءلت: أيمكن أن يخط القدر في سجلها سطرا جديدا بعد أن ابتلاها بزوج يهملها؟..

ألم يتصور يوما أن تقع في شرك لحظة ضعف؟

هي الآن تعيد تشكيل خارطتها، خرجت إلى الحياة، تتماسك.

تراقب ضعفها وتحكمه.. ولكن إلى متى؟

هزت رأسها، ورمت بشعرها إلى الوراء وكررت سؤالها:

إلى متى؟

أسندت رأسها بين كفيها، وبكت.

هروب متكرر

إلى أين ستهرب اليوم؟

أي مكان تذهب إليه سيكون أجمل من القبر الذي تسجن فيه.. ستبتعد عنه لحظات.. هذا الذي كسر روحها وامضها.. لا هو موجود، فأأتنس به، ولا طفل لي أنشغل به.. أعانقه.. وألاعبه.

ربما يملأ الفراغ ويسده!

لكن الرحم خاصمني، وهجره ماؤه المختزن.

أغراها النسيم البارد فراحت تتلكأ أمام المحلات.

شعروها بالوحدة يحجب متعتها.. أين الفرحة وهي تدخل وتخرج؟ ترى المعروض. تسأل، تساوم، تتأكد من مقاس البلوزة، والحذاء.. والملبس الداخلي.

الحزن والوحدة جزاء تدفعه من حياتها معه.. أيستحق؟

إلى متى تهدر شبابها، وتضحي بجمالها؟ أتضمن أن يظل الجسد متماسكا وهو يواجه الزمن؟

لقد مللت إغلاق الأبواب، وإسدال الستار، وسرقة النوم من سطوة الأرق.

الحياة جميلة لمن يرى.. عليك أن تغتنمي صحوك قبـــل أن يـــداهمك الغياب!

هل أقدر على أن أقول كفى؟.. هل أقوى على البحث عن طريـــق آخر أكون فيه حرة من كل قيد؟

هل يمكن أن أبدأ من جديد؟

«هل»؟

ارتطمت برصيف عال، كادت تسقط، اعتدلت، سوت هنـــدامها، وأخذت نفسا عميقا.. كعادتها حين تكون في مأزق. وجدت نفســـها في ميدان الساعة.. رأت المجسم فخما... وجماله يلمع.. عداها الجمال فخف القلق، وسرى فيها إحساس البهجة الذي توارى، وشعرت بدفء الدماء في الأوردة.

شدها خيوط الماء في اندفاعها من النافورة إلى الحوض الدائري الذي علاه الزبد وفقاعات عائمة.. شغلها الزبد الطافي والمرتج وانعكاســـات الضوء، وشجيرات من النخيل تحيط بأطراف الدائرة.. وزهرات صفراء، وبيضاء ترتجف من زخات الماء، وفروع بازغة تلامـــس وجـــه النجيـــل الأخضر.

استقام جذعها وتنفست بعمق، طالها الـــرذاذ فـــارتعش وجههـــا، مسحته بمنديل ورقي.. ورمقت عصفورين يزقزقان، يدســـان المنقـــار في الحوض، يتلقيان رذاذ الماء، ويرفرفان بالأجنحة، ينفضان الماء وينطلقان.

أخذت طريقها إلى أحد فنادق الجيش الشهيرة.

تذكرت أن اليوم هو السبت، موعد اجتماع جماعة المسنين، وأنهـــا يوما ما.. كات تتردد عليهم وتحضر معهم جلساتهم لكنها لم تســـتمر.. خشيت أن تصيبها عدوى الشيخوخة.. كفاها وحشة الوحدة وهجـــرة الخليل.

ولجت الباب..

جابهها جمال يأخذ العين ونسق فني جميل.. في الحـــدائق، وأمـــاكن الرواد.. وملاهي الأطفال، وحمامات السباحة. أحست بالنشـــوة وهـــي تسير عبر ممرات الحديقة حتى وصلت إلى حوض السباحة الصغير القريب من جماعة المسنين.

اختارت منضدة تحت شجرة تنسدل غصونها في نسق جميل ومهندم.

كان الظل يغطي مساحة من المنضدة، في حين تتسلل أشعة الشمس وتفرش ضوءا على المكان.. أدارت رأسها، رأت الـــرواد يتحـــدثون في الهواتف، يقرأون الصحف، أو يلعبون الطاولة.. وعدد من أعضاء الجمعية يتحلقون منضدتين، يأكلون ويشربون، يتحدثون، ويفيضون ببهجة تلوح على الوجوه.

طلبت من العامل فنجان القهوة، وزجاجة مياه صغيرة.. لا تتوقع أن تقابل أحدا تعرفه، فتحررت في جلستها.. مدت ساقها.. أستندت بقدمها على مقعد آخر، مدت يدها وأخرجت من حقيبتها «راديـــو صـــغير».. وضعت السماعة في أذنها اليسرى.. وأدارته على البرنامج الموسيقى..

لم يشغلها أخبار العنف الذي يسود البلاد ولا المظاهرات أو الفوضي السائدة ولا النظام الذي تردي في مهمته، كفاها ما تعانيه، ولتبعد عـــن نفسها تلك الغيمة المعتمة التي أظلمت البلاد.

مدت يدها في الفراغ وأدارت رأسها تجاه جماعة المسنين، أعتدلت ثم نهضت وتحركت نحو حمام السباحة ثم عـــادت.. جلســـت في مقعـــدها واستندت بكوعها على حافة المنضدة.. مدت يدها، وأمسكت بفنجـــان القهوة.. ارتشفت قهوتها في تلذذ.

تملكتها دهشة مباغتة حين رأته يصعد درجات السلم في اتجاه حمـــام السباحة، كاد قلبها يقع في جوفها، وتمتمت في وجل مندهش: حتى هنا؟

فاجأها حين استدار بغتة واقترب منها:

– هكذا.. أراك بالصدفة

ضحكت، ورامقته.. لاحظت ارتباكه.. فدعته للجلوس وقدمت له مقعدا مجاورا. جلس وهو يتعجب من المصادفات الطيبة.

– لم أرك هنا من قبل.

- انقطعت منذ فترة.

- ستقضين فيه وقتا بهيجا.

- آتي.. حين أريد أن أخلو بنفسي، أو حين أشارك جمعية الشـــباب الدائم اجتماعهم.

علق في تغريدة منعشة سعدت بها.

- الشباب يهفو إلى الشباب.

- هي جمعية للمسنين.

أشارت إلى المكان الذي يجلسون فيه وإلى صخبهم الجميل وحديثهم الحميم.

وسألها:

- أنت عضو فيها؟!

- من عامين فقط.

لم تهتم بأنشطة الجمعية أو الاشتراك في رحلاتهم، واحتفالاتها، فضلت أن تصاحبهم في لقاءاتهم.. سمرهم، شجونهم، ذكرياتهم.

أتت لهم، بقريبات مسنات، يعانين الوحدة، بعد زواج الابناء حصلن على العضوية، وداومن على التبرع، والمشاركة في الأعياد والـــرحلات، والاحتفالات.. وظلت هي بعيدة، وقريبة معاً..

لا تقيد نفسها بشيء.

رمقته في نظرة موصولة وتساءلت.

– كأن جنيا يخبرك بمكاني.

ضحكت ساخرة وهي تتملاه.

– ألك في السحر؟

– ترسلين نورك فنتبعك.

– هل جسمي يشع نورا؟

– كالقمر..

تورد وجهها.. وصمتت:

– ينبئني بالمكان فأهرع إليك.

– من؟

– القمر.

غلبها الانفعال.. تلونت ملامح الوجه بوجوم طارئ، فهي لا تقوى على مساع العزل، ولا تحب أن تتمادى، فتنسى من هي؟ هو لا يخرج عن المألوف.. وهي لا تسمح أن يظن بها ضعفا.. وإن أجاد صب الكلام

في الأذن.. كلام تعودته، ثم حرمت منه.. لكنه لا يحرك القلب إلا قليلاً.. يظل عالقا فلا ينفذ من المسام.

يكتفي بالكلام، يستغل الصدفة، فقط يبرع في رسم صوة جميلة تضفي على اللقاء بهجة:

– المكان جميل يسعد من يرتاده.

– ويسعد بك.

وضع عود النعناع في كوب الشاي الدافئ، وملعقتين صغيرتين من السكر، حرك المعلقة في قاع الكوب، أذاب السكر، ودفع بعود النعناع إلى القاع.. وظل يحرك ويحدث صوتا:

بادرته قائلة وصت الملعقة يرن:

– كفى.

خرج الصوت حاداً، فخجلت، تخضب وجهها بالدفء، وضعت رأسها بين كفيها ورمقته، وكأن يتأملها في حنو.

– قمر بين وردتين.

اتكأت بذراعها على طرف المنضدة، ورمت ببصرها نحو أعضاء الجمعية، هلا لاحظوها؟ تحب ألا تغير عادتها.. تعودت العضوات أن

يرونها بمفردها.. سيسألنها.. من هو؟ زوج، قريب، وسيبتسمن في جرأة.. لعله صديق أو حبيب.

إنه رجل يغدق عليها المديح كلما رآها.

من لا تضعف أمام الإطراء والغزل؟!

رجل الصدفة يوظني من حلم لا أبتغيه معه أو مع غـــيره، لكنـــه لا ييأس، منذ المصيف وهو يجاهد.. أن يستكشف السحر فيّ.. يكرر أمامي دائما..

– لا تهملي زهرة الأنوثة فتجف.

يتحدث عن زهرة الأنوثة الوردية التي حين نشمها نلمح في غيمـــة عطرها صورة كالخيال تشع بالنور.

يتأملها في لهفة موصولة:

– هل رششت العطر عليها.

– على ماذا؟

– زهرتك.

– معطرة بالفطرة.

وضحكا.. معاً.

خشيت أن يحدث المحظور ويتجرأ.. حين قال لها:

– يصطادني قمرك.. فأركض إليك.

قد ينسى حذره الذي تعودته.. رأت في عينيه المحدقتين وهجا يكـــاد يسيل.. تجنبت نظرته.. وقالت في حسم لا يجرح!

– لا تنظر إلى هكذا.. ولا تقترب.

ظلت عينها تراوحه وصوته يتهدج.

– امرأة من نور لاهب.. زهرة ونار.

غضت البصر وأطرقت، ثم نهضت فارغة:

– سآخذ زهرتي وأترك لك النار.

فتح كفيه كأنما يتقي النار، فجابهته رائحة العطر، فرد أصابعه.. أراد أن يستلب عطرها، فأبت.

حملت حقيبتها ومضت.

ظل يتابعها وهي تخطو في اتجاه جماعة الشباب الدائم.

الكوافير

اليوم سأذهب إلى محل الكوافير، أهندم شــعري وأرســله سبائك وخصلات تخلب العين.. لم تعرف قدماي الطريــق إليه منذ فترة.. كنت أخاصم نفسي وأترك الوجه خاليــا، واكتفي بالمشط وبمسحات خفيفة على الشفتين.. تعللــت بحالة الغياب والهجر.

الآن أعود للتجميل.. هل تلاحقني العيون وتشاغلني؟!

وذهبت..

تعجبت الكوافيرة حين رأتني واستنكرت منظري.. رفعــت رأســها وحدقت، كأنها لا تصدق أنني مازلت أعرف العنــوان. مــدت يــدها وسلمت، ثم احتضنتني.. أخذت بيدي وأجلستني.

رحت أتأملها في المرآة.. جميلة الوجه، مشدودة القــوام.. وكنــت أهرب من وجهي إلى وجهها.

أجرت على شعري أدواتها، فردته، ومشطته، لاح جمــيلا وناعمــاً ومسترسلاً، ظللت أرامق وجهي في المرآة، أعجبني، عاد إليه بهاؤه.

حمرة الخد، ورونق الود في الشفتين، إمالــة الحــاجبين، واســتمالة الأهداب في خفقة الجفنين.

ظلت تحرك الرأس وترنو إلى الشعر، والوجه، وانسدال الخصـــلتين، تبتعد وتقترب، تديره إلى اليمين قليلا، ثم إلى اليسار.. وتوقفت.. لمحـــت رضا يبدو عليها، كأنما تستمتع بفنها الذي أبدعته:

– شعرك جميل.. لم تهمليه؟

لزمت صمتا يغني عن القول.

– غيرك تتمنى شعراً كشعرك.

ووجها كوجهك.. لا تجحدي النعمة.

ضحكت فاعتدل قوامها..

مالت على منضدة صغيرة، مسكت بوردة بيضاء وقدمتها إليّ..

– حين يراك سيأكلك أكل..

– من؟

– زوجك.

وضحكت وهي تهمس في مودة.

– لن تغيبي عني مرة أخرى.

تعجبت أن يكون للكوافيرة تلك المقدرة على التبـــديل والتحويـــل وإبداع الجمال.. وأنا المستعصية على الإبداع والتجديد.

في عودتها حرصت على أن تتمهل في خطوها.. أكانــت تريــد أن تقيس ردود الفعل؟

أدركت وهي ترنو خلسة إلى العيون، إنها تسيل دهشـــة ففرحـــت، أغرقها الفرحة فاهتزت أطراف الجسد.

لمحته وهو يدحق، وأدركت أنه سيلحق بها ليتحدثا، يمر الوقت سريعا معه، لمت وجهه مشرقا بالدهشة فراهنت عليه، هذا القريب الرحيم الذي ينسيها بعض ما يشغلها.

عيناه تحدقان فيها.. أيظن بها سوءاً؟ هل أصابها مس من الجن لتمشي بهذا الدلال؟ وهذا الذي فعلته بوجهها لمن؟ والزوج يكاد لا يراه!

***

سيأتي متأخرا لن يفوت الفرصة.. سيقول وهـــو يمـــد يـــده قبـــل الدخول.. ليس من المناسب أن أتأخر، وسينتظر إلى الساعة فوق الحائط ويقول متعجبا:

– الثامنة.. لقد تأخرت فعلا.

وسأقول له وأنا أبتسم وأشده ليدخل:

– لم العجلة؟

وسيهرع إلى الداخل، وأنا ألاحقه.

– أنت على المعاش.. ووحيد مثلي.

وسيرفع رأسه.. متلفتا:

– يجب مراعاة الظروف.

وأقول له.. وأنا أضحك صاخبة:

– والجوابات!

وسيرنو إلي.. ويقول:

– لو يغار زوجك ويتحرك دمه لجئت في أي وقت.

وسأضحك منه وهو ينصحني أن أقترب، وكفى ابتعادا!!

فالهجر مقتله للزواج.

وسأودعه بابتسامة.

وسيربت على يدي ويبتسم.

رجل وقور

يتردد على البيت في غياب الزوج الذي لا تراه..

يستند في تردده إلى قرابته للزوج، وإلى عمره الممتد، ومع تكرار وجوده إلا أنها كانت تحب أن تظهر بمظهر جديد.

ما الذي يمنع أن ترتدي فستانها (البمبي)، وأن تمسط شعرها وترسله خصلات تنساب حتى الكتف، وتتزين بقطع ذهبية نسيتها طويلا في علبة الجواهر.

ترددت أمام أحمر الشفاه فتركت شفتيها تلمعان بحمرتها الطبيعية.. أطلت في المرأة واطمأنت لهندامها.

ابتسمت حين رأته.

ما الذي جرى له؟ وما هذا التأنق الذي هو فيه؟

(البدلة) داكنة ومحبوكة، الشعر الأبيض مرجل ويميل على جانب الرأس الأيمن، والوجه ضاحك وباش.

مد يده فقبضت عليه وأجلسته على الأربكة.. في بهو البيت..

ظل يراوح النظر إليها ثم قال وهو يتداخل جلسته:

– أنت جميلة حقا.

رنا أيها، وأمعن، وكأنما يريد أن يصل أيها المراد:

- حماك الله من عين الحسود.

وصانك من خبث العابثين.

اتسعت عيناها، احمر الوجه متوهج:

- كيف يتجاهل هذا الولد هذا الجمال؟

- أي ولد تقصد؟

- زوجك!! أليس ولداً؟

وتسلت إليها سعادة غائبة، وشعرت ببهجة تكـــاد تنضـــح علـــى وجهها.

همس وهو يصوب نظره في الفراغ كأنه يؤنبه:

- ولد غبي.

وصلتها الكلمة، أدارت رأسها وكتمت ضحكتها.

انعكست مشاعرها في عين الرجل، وشعر بقلبه يـــتقلص، وبحنـــان يحتويه، وبحزن صريح تجاه الجمال الحزين.. المهمل.

اقترب منها ومسك يدها:

- تذكري أنك الأفضل.

نظرت إليه صامته.. ومندهشة:

– وأنك الأجمل.

أطبقت جفنيها واضحة:

– والقادرة على المواجهة.

خفق جفناها فاهتزت الرموش.. خطف نظرة إليها فلاحت رموشها مبلولة بدموع محتجزة.

– علينا أن نتعلم كيف نحيا؟

همست في صوت خافت:

– سوف أحيا!

دارت عيناه في البهو الأنيق، وتوقفتا على صورة لهما بثوب الزفاف، وباقة تزهو في يدها، وعينين تحملان نظرة تائهة:

– اقتربي منه ولا تعاندي.

فتخسريه، ويضيع منك.. تنهد، علا صدره وخرج هواؤه ساخنا:

– الوحدة قاسية.

– سأحاول.

عيب للرجل أن يسألها، أن يلمس الجانب الخفي فيها. لم تبدُ أحيانا ذاهلة ومتوترة، ومتجملة، بم يفسر هذا النفور لبيتها كأن به ثعبانا تخاف أن يلدغها!

ما الذي يدفعها إلى الخروج دائما؟.. ألديها نزوات صغيرة تخفف بها عالمها الذي يبدو لها متوحشا؟.. مع أنها ترفل في ترف واضح!.. أم أنها.. أم.

كف عن الاسترسال وعض شفتيه وطوح برأسه رافضا.. وتمتم.. لا أظن.. لا أظن.. لكن السؤال ظن يراوده ويزاحم فكره الذي التبس.. أفي حياتها رجل آخر؟

رمى عينيه نحوها وهي تضع كوب الينسون أمامه.. والهاجس شغله.

كانت تشعر معه بالألفة والمودة، لم تشفع قرابته للزوج في هذه المودة، بل فاض وقاره على السلوك معها، والاهتمام بها.. وسؤاله الأبوي الدائم كلما غاب الزوج، أو سافر في مهمة عمل.

وعبر هذا اللطف الجميل كان دلالها الأنثوي يكسبه ثقة في النفس.. وأن عمره السبعيني قادر على التجدد، وتقبل الحياة.

ظل يصطاد بعينه حالاتها، ويخشى عليها، ويشعر بقلبه أنها تحيا – مثله – الوحدة التي تطاردها بخروجها الدائم، لم يجدها كثيرا في البيت كلما مر عليها.

لكن.. كيف تشعر بالوحدة وهي المتزوجة؟!

وهل سيظل زوجها يعاند حتى يهلكا معا؟

لم ينس – وهو يمر بمسكنها – أن يطمئن عليها.. قبل أن يصل إلى مأواه بالطابق الثالث.. لم يمل.. يدق الباب، وينتظر، تفتح الباب، فيلقي التحية ويبتسم.. وحين تبتسم يومي برأسه ويواصل الصعود.

هذا المساء والذي قبله لم يضغط على الجرس، ولم يومئ برأسه.. اتخذت طريقها إليه.

وهما يشربان الشاي اختلست النظر إلى إطار جميل وأنيق، بداخله صورة لامرأة في منتصف العمر، وبجوارها زهرة بيضاء بفرع دقيق وورقتين خضراوين.

نحيّ فنجان الشاي جانباً، وراح ينظر إليها، نظرة تشي بفرحة بادية.. على وجهه.. ابتدرها قائلاً:

– زوجتي.. أنت تعرفينها.

– نعم.. كانت جميلة، ومحبة للجميع.

– لم أر امرأة مثلها.

انفرجت شفتاها عن بسمة رضية.. وقالت:

– يفضحك الحب.

لاذ بالصمت.. تأملت وجهة الذي تغضن، ولمحت رعشة أرجفـــت ملامحه.. أخذته نظرة فغاب عنها أخرجته من حالته بنقرات على رخـــام الطاولة:

– أسقطتني في الفراغ ومضت..

ارتعش داخلها، وخشيت أن يفيض فيزداد الشجن وألم الفراق.

– هي أمامك... ليل نهار!

الفل يعطرك.. والعين تحميك:

– كأنني أراها الآن راجعة من مشوارها اليومي.

وفي يدها فرع تضعه في إناء زجاجي.. لم تنس يوما عادتها.

ارتجف صوته، وشملته هزة رجته.. وتنهد في عمق:

– حين مرضت اختفت الرائحة.

أسرعت قائلة وهي تخشي أن يسترسل:

– أنت تكرمها في موتها

رنت إليه وأشارت بإصبعها منبهة.. ثم ضحكت:

– ألا ترغب في امرأة تؤانسك وتخفف وحدتك!

– قالت لي في مرضها.. لا تتزوج عليّ

- لكنها ماتت.

رفع رأسه، ورمقها وأمعن..

- كانت قريبة مني.. لصيقة بي.

تجنب نظرتها الرانية وقال:

- القرب بين الزوجين يبعد الجفاء.

جرّبي.

وحدق في الصورة، وأشار بيده إلى ملامح الوجه، وزهـــرة الفـــل، والفرع الدقيق، والورقتين الخضراوين.. ثم قال في زهو:

- ها هي أمامك.. تملأيني..

ونهض ضاحكاً:

- آن لنا أن نشرب القهوة.

نظر إليها حانيا وهو يرشف قهوته..

جنحت عيناها نحو صورته على الواجهة أمامها وابتسمت.

نطق فجأة كأنه اكتشف أمراً:

- معك لا يشعر الإنسان بالملل.

كيف يمل منك؟

تنهدت في مق حتى كاد هواؤها الساخن يصله.

- أتعجب لم لا يقترب منك.

وتنهد هو الآخر عميقا وسألها معاتباً.

- لم تبعدين عنه؟!.. اقتربي، البعد هجر.

استراح في جلسته، فرد ساقه، وفرك أصابعه، انحنى قليلا وتناول الفنجان، أبقاه في يده وحدق فيه، كانت ترمقه وتنتظر أن يخلع عينيه منه. رفع رأسه ثم رشف رشفة طويلة.

وضع الفنجان بين إصبعيه وراح يرجه.. وقال مبتسماً:

- أتقرئين الفنجان؟

- أتعرف أنت؟

- قليلاً.

أطرقت برهة ثم تساءلت:

- أحتاج إلى من يفسر لي حلمي الذي يقلقني.

- دعك من الفنجان.

رأيت أبي في المنام يدلف من الباب متسللا ويجلس في مواجهتي.. لمحت في نظرته مقتا لم أتعوده منه، كأنني لست ابنته، قال في غضب: تستحقين الموت.. مثلك لا يشرفني.. أخرج من جيبه سكينا تلمع وهب شاهراً سكينه.. ارتعت ورحت أصرخ. استمعت الريح لصراخي وحنت عليّ، فهبت، فتحت النافذة، وتلقفته، انتزعته انتزاعا وأغلقت الشباك.. لكنني ارتعبت كثيرا حين نظرت إلي وغمزت بعينها.. قبل أن تمضي.

تمعن فيها ملياً:

– رؤية الأب نذير.

– أيصيبني ضرر؟

– إنه يحذرك.

– ممّ.. يحذرني؟

– من نفسك.

وتمتم في صوت خافت:

– النفس أمارة بالسوء.

مسح على رأسه، وعلى وجهه وبدا غافيا:

– الوحدة وراء كل الهواجس.

اعتدلت وسوت سترتها، وبدا عليها التوتر وصوته يجنح إلى رعشـــة تصاحبها نظرة رانية.

- اللهم اهدنا لأحسن الأعمال والأخلاق.

فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

لمح وجوما يطل من ملامحها فزسرع مداعباً:

- فكري في عمل ما.. سيخفف عنك.

- أكاد أجن.

فرد أصابعه في وجهها كأنما يبعد عنها أذى يقترب، وهض.

قدم لها علبة مفضضة.. كعادته كلما زارته.. رشحت عينها بامتنان.

هو القريب، والرقيب، والناصح الأمين..

مدت يدها وتناولت قطعة وفضت غلافها.

علت وجهها بسمة رضية وصاحت في غنة:

- كل مرة.. هذا كثير.

مست بشفتيها قطعة الشيكولاته، وهي ترامقه في بهجة، لاكتـــها في تلذذ.

أسرع، أخذ الفنجانين ومضى إلى المطبخ.

رنا إلى صورة زوجته على الجدار.. وقال في صوت عال:

– لا تتململي.. هي كابنتي.. زوجة قريب لي.

فلا تغاري.. اطمئني..

ضجت بالضحك، ونهضت، طلب منها أن تجلس، فثمة مفاجأة:

– الوقت تأخر..

أمهلها دقائق ثم عاد وبيده صينية عليها طبقان.

تساءلت في دهشة رائقة:

– مهلبية.. أيضاً.

عاتبته ممتنة:

– تعرف أني أحبها..

كان الأولى بي أن أصنعها وأقدمها لك..

كانت حبات الزبيب تتيه بلونها، ومسحوق المكسرات..

يتخايل في نسق يثير الشهية:

– ليس من المناسب أن أتأخر.

– المهلبية عشاؤك.

ضحكا.. وواصلا الحديث وهي تمسك بالملعقة. حملت عيناه وداعة، وشفقة:

– لم لا تقدمين له طبق مهلبية من صنع يديك.

تنبهت، فأعطته سمعها.

– سيري الزبيب، والمكسرات وزينتك التي تثير اللعاب، وصـــنعتك التي لا ينساها.

أسندت رأسها على كفها وتابعته:

– بعد المعلقة الأولى.. سيرمقك معجبا، سيطبع قبلة على وجهـــك ممتناً.

– كم قدمت له.. يهز رأسه.. ثم يمضي.

أدار رأسه، وتجنب النظر إليها..

– كثيرا، ما تحدثت معه.. عتاباً ومناصحة..

سأعاود.. بودي أن تنجحا في حياتكما.

اعتدلت، سوت سترتها، وزمت طوقها..

قالت وهي تمد يدها إليه مودعة.

– دعه.. سيعلمه الزمن..

– إذن.. اصبري.

وهو يودعها.. وضع على شفتيه بسمة رائقة كان يقصدها.

قلبه يأسى على هذه المرأة التي غلبتها الحيرة، وجانبـــها الصـــواب أحيانا..

هي النفس لا نقوى على مغالبتها إلا قليلا.

هذه البنت الجميلة، الوحيدة والزوجة المهجورة عليهـــا أن تتحلـــى بمناوشات الأنثى مع الزوج.. كما تحدث مع الغير في أحيان أخرى.

ما الذي يمنعها من اقتحامه.. وفرض نفسها عليه، رضي أم أبى؟

هذا الزوج المعاند، الغبي.. الذي مللت من نصحه.

يحتوي الوجه، ملامحه، وأشجانه، فيرتعش قلبه عطفا عليها وحرصا. يخشى عليها من مصير يعاني منه.. حياة تقوم على ذكريـــات.. صـــورة معلقة على الحائط.

ظل رانيا إليها والبسمة عالقة بشفتيه، تغالب دمعة تريد أن تخالســـه وتفر..

أدركت حالته، فحركت رأسها وسألت:

– كانت الجلسة طيبة.. فماذا بك؟

مسك يدها، وربت عليها في حنو دافئ وقال في صوت يحمل عطفـــا وحثا على الفعل:

– تقدمي إليه.

وضحك زاعقا وهو يتعمد الكلام:

– قولي له في دلال الأنثى.. هئت لك.

لمح حمرة الخجل تطل على الوجه.. فتابع حديثه:

– اقتحميه يا بنيتي.. لا يقف كل منكما في طرف مغاير.. اقطعـــي المسافة، واقتحمي، لا تبالي بردود الفعـــل.. مـــرة، وثانيـــة، وثالثـــة.. صديقيني، سيدرك .. وسيتغير.

تنهد، وخرج صوته يحمل ودا وعطفا:

– قدمي له الزهور والورود.. جربي..

لاذت بالصمت.

يعلم أنهما تحدثا سويا حول هذا الأمر.. لكن ما الذي يمنع.. سأكرر ما فعلته.

سأزرع البيت زهورا ونباتات عطرية..

لعل أنفه يشم..

وقلبه يعود لنبضه..

تهلل وجهه كأنما وصله ما كانت تفكر فيه..

فقال في تؤدة حانية:

– وردة بيضاء تكفي..

تحرش

حط عليها هذا الصباح ضجر لم تتعوده، أحست به يسري مع الدم ويندفع إلى القلب حتى كاد يوقفه.. طال الدماغ وضغط على الرأس والرقبة.. أصابها صداع كاد يأخذ روحها. اضطربت حركتها وارتجت خطواتها فتنحت جانبا عن نهر الطريق واستندت إلى بروز ناتئ لسور قديم. دربت نفهسا في هذه المواقف على أن تتنفس بعمق.

تدلك الجبهة، وتضغط على العينين في لمسات ناعمة، وتمس بأصابعها جانبي الرقبة.. وتترك لخيالها العنان ليصطاد الفراشات في حدائق النادي وأعالي الشجر، وتفرد أصابعها لتقطف زهرات الياسمين وتجعل منها أسورة وقلادات، توزعها، وتحفظ لنفسها بسوار تدسه في حقيبتها.. توقعت أن تلاحقها العيون التي ترمقها وتتلكأ راية ثم تخطف وجهها وتمضي.

تنبهت فاعتدلت.. ارتجف أجفانها وغمزت بعينها إلى السماء، شعرت بتحسن وبأنها تستطيع أن تسير في طريقها.

تحركت ببطء، درست خطواتها، قاست المسافات، وأدركت أنها تعود إلى طبيعتها، وأن نتف الغيم تضاحكها وتبعد عنها كيد الشمس.. تجنبت الحفر، والمطبات.

كادت تلاصق البنايات وتتداخل معها.

صك سمعها صخب كالعراك.

كان عدد من الشباب تتعالى أصواهم، يتدافعون، يشتبكون، يتطارحون بالألسنة.. وكانت الفتاة تجري منفلتة من شراك الأصابع، تسوي حجاها وترتعش يدها وهي تزمه على رأسها، وتتلفت إلى الخلف، لعلها تطمئن إلى أن أحدا لا يتعقبها.

استدارت، ومضت في اتجاه مبنى مكتبة على ناصية شارع ضيق قريب من الميدان، اقتربت من المكان، وجدته مغلقا، اعترها حيرة وراحت ترسل بصرها وتتلفت.

وهي في الجامعة كان الذي هاجر يصطحبها إلى مكتبة الجامعة، يقرآن ويصنعان معا خيالا يجملان به الواقع، ويحلقان به.

هل جاءت لتستعيد الرغبة القديمة؟. أم تراها تحتاج إلى جناح الخيال من جديد؟

كان يقف قريبا من المكان، لمحته في بسمته المزمومة وعينه التي لا تطرف.

اتجه نحوها وقال مزاحماً:

– تريدين شيئاً؟

الذي يقف أمامها يسألها، تراه أحيانا في زيارها للميدان بسحنته الكالحة ووجهه الذي يحمل أنفا مدببا، وذقنا عريضة ولحية ناتئة..

تأففت من بسمته المصطنعة، امتعضت حين رأته يدنو ويقترب.

قررت أن تترك المكان.

أدرك أنها ضاقت به فأسرع قائلاً:

– أغلقت الشرطة المكتبة.

عض شفتيه وأمعن في نظرته وتأنٍ:

– قادوه إلى القسم.

نطقت في لهفة، لامت نفسها عليها:

– من؟

أطلق عليها نظرة نهمة، وتتم في همهمة لا تبين «كأنها لا تعرف!».

شددت قبتها على حقيبتها وانتظرت أن يردد.. هاجسها خاطر أقلقها.. «أيكون هو؟».. وجلت من صمته الذي طال، وغمزة أنفه المدبب فعاودت السؤال.

– منّ؟

أجاب في بلادة، وهو يطيل الكلمة، ويفرد ساقيه ويتكئ على قدمه اليمنى:

– عاااادل!

ارتعشت شفتاها وتطلعت إليه متشككة:

– لا أصدق.

كوّر يده، طوّح بذراعه في الفراغ، غير من وقفته، اتكأ على القـــدم اليسرى.

نظر إليها محدقا.. جحظت عيناه.. «ما أدراها أنـــني أقصـــده؟».. حادث نفسه بأنه لا يزال قابعا في الذاكرة.. وإن تعللت.. أو انكرت.

مدت يدها، وشدت جسمها، وعبست. فكرت أن تنسحب وتبتعد عن عينه الجاحظة. كيف أباحت له أن يفرض نفسه عليها؟.. وهـــل مـــا يقوله صحيح؟.. ولماذا قصدني؟ أيعرف شيئا عني؟ من هو حتى أنشـــغل به؟!!

عاجلها وو يرصد ملامح الوجه ودهشته:

– لا تغتري بالمظهر.

كظمت غضبها، تجاهلت تلميحاته وسألت:

– ماذا فعل؟

– ألم تعلمي أنه يتاجر في المخدرات؟

– من؟

– عادل.

– هناك خطأ.. عادل.. مخدرات.. أنت تكذب..

قرأ الدهشة، ولمح أمارات الخوف تخايل الوجه..

ود لو اقترب..

استدارت وعادت إلى طريقها نحو الميدان، اعتصر الغضب قلبه، نفضها، ودفع بها مهرولة. ظلت تسأل نفسها عما قاله الشاب.. وراحت تستعيده وترفضه.. وتلح في الرفض.. وبدت كمن تخرج من مغارة معتمة..

***

لم يغب عن ذهنها، ظل وجهه يراودها. ما الذي جعله يقتحمها فجأة؟

كانت السماء تمرح فيها غيمات داكنة، والشمس تراوح ضوءها بين السحب.

وقفت. تنتظر أن تقرر وجهتها. طال الوقت فراحت ترامق واجهات الأماكن.

وكان هو يطالعها من وراء الزجاج.. ويتعجب من وقفتها.

لعلها لا تعلم أنني أعمل هنا، في مكتبة تطل على الميدان المعطر برائحة السيدة.. زينب رئيسة الديوان.

تقدم، صعد الدرج وتطلع إليها. انتظر أن تلتفت، وتمنى أن تراه قبل أن تغير طريقها، أو يصيبها الملل من وقفتها التي طالت..

واستدارت.

تواجها. تشابكت الجفون واتسعت.. ابتسما، وتلاقى الكفان.

أخبرها أنه يعمل في المكتبة بعد تخرجه، وأنه لم يرها منذ أن ترك مسكنه في عام لكن الجيرة راسخة، وهو لا يقوى على نسيانها أو نسيان أبيها دافئ القلب، دمث الخلق.

كادت تذوب خجلا، فأبدى أسفه على اقتحامه، أخبرته أنها سعيدة برؤيته.. فسعد ولاحت الفرحة تسري في ملامحه.

قال لها إن الوقت لا يسمح له بالتردد كثيرا على المسكن القديم. حمل وجهه اعتذارا فأسرع ودعاها إلى الدخول.

جلسا متقابلين، لم يخف فرحته بها، ولم تضن عليه ببسمتها.

سألها وهو يترع غطاء علبة أمامه:

– هل تعملين؟

مدت يدها والتقطت بإصبعيها قطعة من الشيكولاتة:

– لا .. لا أعمل.. الأبواب موصدة.

«موصدة».. كررها ضاحكا، وأطلق عينيه تفتشان في أصابعها:

- مخطوبة!

رمقته لائمة.. فردت أصابعها أمامه وأومأت بالنفي..

ضحك وهو ينقر بإصبعه على كتاب أمامه. التقطه وقرأ عنوانـــه في بسمة ضاحكة «كيف تختارين زوجك؟». ساءل نفسه معاتباً...

كيف غاب عنهم هذا الوجه الجميل؟.. سحبت بســـمتها الخافتـــة شفتيها فأطل البريق من ثناياها ووشت حمرة الخجل بدفء خدها الـــذي تكور...

قالت في دلال:

- تسأل كأنك غريب.

- بل.. قريب.

كاد قلبها يثب والدم يزهو بحمرة وجهها.

أرخت جفنيها، ولمحت الكتاب.. تأملت لوحة الغـــلاف.. كانـــت لامرأة تطل من النافذة وتطارد زنابق بيضاء..

***

داهمها الشاب ذو الأنف المدبب، راح يمطرها بعبـــارات خارجـــة وبذيئة. تجاهلته وابتعدت، ظل يلاحقها، يقترب ويبتعد. يضعها في مرمى البصر ثم يدعها. حين رآها تدلف إلى شارع جـــانبي، توقـــف فجـــأة،

لامسها، مد يده، صرخت هلعا وقاومته بشدة. شدها إلى مدخل بيـــت. دفعته بقوة واستغاثت صارخة.

شعرت برعدة أنهكتها، أقصت الرجفة الغطـــاء الـــذي يغشـــاها.. حشدت طاقتها، شدت جسمها فاستقام، مسحت وجهها فأضاء، قبضت على حقيبتها وتأهبت، وشت ملامحها بقوة غائبة فاستدعتها، آن لهـــا أن تستخدمها، كزت على أسنانها وابيضت عيناها وصرخت. من كان يراها يقطع بأنها فقدت صوابها، غاب عنها عقلها وبدت كقطة كشرت عـــن أنيابها، وهيأت مخالبها.

هرول المارة وبعض الواقفين أمام المحلات وأحـــاطوا بـــه، عرقلـــوا حركته في غضب شديد، ظل يتدافع، ويتلقى الضربات حتى استطاع أن ينسل ويفر هاربا.

أتى أحدهم بمقعد، جلست عليه، ظل جسدها ينتفض وهي تتطلـــع إليهم وعيناها تذرفان الدمع. أحاطتها امرأة بـــذراعيها وربتـــت عليهـــا ومسحت دمعها.. سألوا عن السبب؟ استفسروا، عرضوا الـــذهاب إلى الشرطة، تطوع أحدهم بالبحث عنه. لم تقوَ على الكلام، كان لسانها قد انعقد. شعرت بحيرة حقيقية وهي في موقـــف العـــاجزة عـــن الكـــلام والحركة.. وتكتفي بالبكاء.

تقدم أحدهم بزجاجة مياه صغيرة، بللت المـــرأة منـــديلا ورطبـــت وجهها الساخن. طالبتها أن تشرب قليلا من الماء لتبعد «الخضة» عنها.

حين اطمأنوا عليها، واستعادت جأشها استأذنت ومضـــت. ظـــل أحدهم يراقبها حتى ابتعدت، وركبت التاكسي، فاطمأن.

راحت تسائل نفسها ما الذي جعل هؤلاء الطيبين يعطفون عليهـــا، ويقفون معها، ويحمونها، وهي البعيدة عن المكان وناسه. لكنـــه الضـــجر الذي كاد يوردها الهلاك ويأتي بالفضائح.

امتلأ قلبها بالبهجة – على غير توقع – من هذا الفعـــل النبيـــل.. هدأت ثورتها وخف انفعالها، وكادت تبرأ من سقمها الطارئ، تســـللت السكينة إلى قلبها فخفف الحزن الذي ران عليه.. رنت إلى السماء، مبتهلة شاكرة أن حماها الله، وصانها، امتدت إليها أصابع السماء تربت رأســـها وتلمس خدها.. وانسل الخوف والناس يهرعون كأنهم جنود يحمونها.

حين وصلت إلى البيت، فتحت نوافذه، تركت الباب مفتوحا سرى الهواء ودار في المكان، غير من رائحة «الكتمة» التي طالت وامتدت:

لم تعد تخشى أن يلجها الخوف أو يقتحمها لئـــيم وأمامهـــا عيـــون حارسة.

نهضت وأحشرت عبوة من البخور، ووضـــعتها في طبـــق نحاســـي واشغلته.. انتشرت الرائحة، وزها الدخان، وراح الهواء يرسله ويجري به إلى الأركان، ويدفعه إلى الباب والنافذة.. حتى لاح المكان غيمـــة مـــن دخان معطر.

ارتحال

لم تقرر أين تقضي يومها؟

تخشى أن تظل حبيسة البيت، تطل من النافذة، تسترخي على مقعد في الشرفة، تراقب العصافير، وأفراخ اليمام..

تشعر بالملل يعصر قلبها، فتنهض، تدور في حركة مرتبكة.. تغير أماكن المقاعد، والمناضد، والسجاد، ولوحات الحائط ، وأغصان البامبو. وصورة زوجها.

انتزعت الصورة، تلمت في ملامحه، وعينيه المنطفئتين، وتسريحة شعره، وذقنه المدببة، وشفته الرفيعة.. وارتجفت.

تحيا مع صورة باردة، وملساء.

تحسرت على رجلها الذي قل تواجده في البيت، وسكب برودته في الأركان، وفوق الفراش.. وتساءلت هل تستطيع أنتميز صوته بعد هذا الصمت الطويل؟!

وحيدة مع أشياء فقدت بهجتها..

انصرف الأحبة، والأصدقاء، عاشوا حياهم.. ولم يعد لي أحد ألجأ إليه.. أخرجت النفوس أهواءها، فانكشفوا..

لم تشفع لهم لحية، أو صداقة، أو قرابة، أو زدمالة.. تركوا أعينهم وألسنتهم في مناورة الغواية.. فأبعدوني..

ألجأ إلى مظهري المصطنع أداري به قلقا يعتريني، يجب أن أبدو في عيون الآخرين متماسكة.. وأنني لم أترك بعد بؤرتي التي تجذب البعض، وتشهدم إلى ومضها.. الذي أخشى أن يخفت، ويشحب.

هل أنا قادرة على الفعل.. في ظل الوحدة وغياب الرجل؟

وهل أبدو كمن يخمر في الماء ويمسك بالدفة.. لكن إلى متى؟!

تجدد الحياة سنة كونية، والماء يأسن إن توقف، والتنوع سبب للتغييب، وتدريب للعقل والحس.

لم يعد في وسعها إذن، أن تحبس نفسها لتغير أو تبدل في اشيائها.. الآن عليها أن تخرج وتذهب إلى مكان تصافح فيه الوجوه، والخضرة، والزهور، والأرض الخضراء..

في هذا اليوم الخريفي يحسن ارتياد النادي، والسير في التراك التماسا لنشاط غائب.

السبت هو اليوم الفضل لرواد النادي، ستجد المقاعد ملأى، وحمام السباحة يصطخب بالصغار، والكبار يجلسون على مقربة من الحمام، يراقبوهم، ويحستون شرابهم.

ستمر عليهم كالعادة، تحيي من تعرف، وتخطو في رهافـة، وتجتـاز حدائق الأشجار والأزهار وجلسائها، وستمرق مبتسمة وتتوقـف أمـام شجر الياسمين.. تقطف ياسمينة، تمررها على الأنف سيصلها الهواء معطرا، وسيأتيها بروائح الأحبة.

من يدري؟

سري نشاط خفي في جسدها أنعشاها، وأجرى الـدم في وجههـا فنهضت وارتدت تلائم التريض في التراك.

حين ولجت الباب، تسبقها بسمتها، وهلتها.. بالغ رجل الأمـن في تحيتها.. تعودت أن تنفح أفراد الأمن ببعض المال وتعودت منهم الترحيب والاحتفاء.. معارفها يحتفون بها أيضا، ليس لأنها تنوب عنـهم في تحمـل قيمة المشروبات – غالبا – وإنما لأنهم آنسوا فيها صحبة مبهجة.

هي نفسها تتساءل عن سر هذه البهجة التي تكون فيها وهي معهم.. لا يكف لسانها عن الحديث.. وهو الأخرس في البيت!

لكنها بمجرد أن تفارقهم وتغادر النادي يـداهمها هـذا الـذي لا يفارقها.. الشعور بالوحدة.

تخاطر في مشيتها، وراحت عيناها ترقبان الشجر والزهور والمقاعـد، والتندات، وتجمعات الصحبة، والعائلات، زاحمتها روائح تأتي من محلات الأكل، والكافيهات، هفت نفسها إلى البقلاوة وصوابع زينـب، جـرى ريقها على «هبو» الكفتة المشوية.

أخذها الجمال، والخضرة، والشجر المهندم والزهور الناضرة، وأجلسها بجوار شجرة تزه بزنابقها وزهورها البيضاء.

مدت يدها وعبثت بزنبقة ناجمة، قطفت واحدة وقربتها من انفها.. وخدها وشفتيها، وأذنها.. وارتجفت. اعتدلت، فتحت حقيبتها، أخرجت علبة المناديل.. سحبت منديلا لفت فيه الزنبقة.. أغلقت الحققيبة وأدارت عينها.

حين مرقت العين صادقها.

كانت المرأة ترتدي ثيابا سوداء، تقتعد الكرسي وتمد ساقيها، تحرك قدميها المنفلتين من الحذاء، تحت عصا مسنودة إلى مقعد بجوارها. على الطاولة فنجان قهوة، وكوب ماء، وكتبا وحقيبتها.

لاحظت منذ أن تنبهت لها أن يدها لم تمتد إلى فنجان القهوة، يبدو أنها نسيته في غمرة الحديث في الموبايل.. امرأة متقدمة في السن، تضع نظارة سوداء تجور على وجهها، تقبض بيدها على المحمول.. ظلت تتحدث طويلا، حتى أنساها البن والماء.

تابعت حركة الأصابع وتبدل الملامح، ولملمة الثوب واستواء البدن.

تنهدت وتهيأت للقيام.

هي مثلي تبحث عمن يشغل وقتها ويكسر رتابة يومها.. ربما يساعدني السن في الحركة والتنقل، واقتناص لحظة فرح شحيحة.

كان المكان الذي تجلس فيه السيدة قريبا من حمام السباحة الذي كان وقتها هادئا لا أحد فيه.

وتقدمت نحوها..

لفت انتباهها مجلة 7 أيام، وجريدة المصري اليوم، لحظة اقترابها كانت السيدة قد أنهت مكالمتها، ووضعت محمولها أمامها.

توقفت أمامها، وبدت كأنما تبحث عن شيء ما، أدارت عينيها على التندات الخشبية، والمقاد ع ، وأصص الزهور والرياحين.

فردت جسمها فاستقام وأظهر جماله.

قالت في نبرة خافتة:

– تسمحي لي.. أجلس.

رفعت السيدة رأسها وتأملتها وردت في حنوّ:

– تفضلي.

وقبل أن تجلس بجوار طاولة أخرى بادرتها مبتسمة:

– غيرك لا يستأذن.. فشكراً.

داخلها هاجس أن الثوب الأسود الذي ترتديه السيدة يحمل حزنا موصولا، ويعلن عنه، وأن العصا تشير إلى تعب في الساق أو القدم.. ودت لو تحادثها، أو تقترب منها.

أسعفها قدوم عاملة الكافية، فانتهزت الفرصة وعرضت على السيدة أن تشاركها مشروبا ساخنا.

رمقتها السيدة في ود وأشارت إلى فنجان القهوة.

تحدثت معها عن القراءة، والاستمتاع بالوقت، والتردد على النادي، والقيام بالرحلات في صحبة الأعضاء.. ومدحت حيويتها التي تبدو عليها.

سعدت السيدة من حديثها، وقالت كأنما تريد أن تزيل اللبس:

– جئت لأدفع الاشتراك.

أخرجت أوراقا، لمحت كارنيه النادي وصورة لرجل يرتدي ملابس عسكرية:

– لماذا لم يأت معك؟

– منّ؟

– زوجك.

مدت السيدة يدها، ولامست نظارتها.

لاحظت رعشة تمشي على وجهها وتغضن ملامحه:

– الله يرحمه.

– شدي حيلك.. منذ متى!

– من خمس سنوات.

– وتداومين على «السواد» من يومها.

– أخذ معه شوقي إلى الدنيا.

أرادت أن تلون في الحديث قليلاً، وتصرف اهتمام السيدة بعيدا عن الألم.. فأشارت إلى إعلان النادي عن رحلات إلى الساحل الشمالي.

– لنادٍ يقيم رحلة إلى مارينا.. خذي أسرتك، و"غيري جو".

تنهدت السيدة وصمتت:

– هل مازلت تعلمين.

مرت بيدها على غلاف المجلة ووضعت إصبعها على رقم 7:

– على المعاش من سبع سنوات.. وأنت؟

– لا أعمل.

حدقت فيها السيدة وأمعنت:

– خسارة، ستضيقين بالفراغ.

وابتسمت وأشارت إلى يدها.

– أرى خاتم الزواج في يدك.

تنهدت هي الأخرى، وقالت:

– رفض أن أعمل.

– منّ؟

وتابعت في نبرة حزينة، لم يغب عن السيدة معناها.

– اكتفى بعمله.. وتركني.

صمتت ولم تكمل عبارتها فأكملت الأخرى.

– للفراغ.. والوحدة.

مدّت السيدة رأسها، وحركت يدها، ولمست المحمـــول، والجريـــدة ونظرت إليها في ودّ وحنان.

– تدللي، تزيني، وتجملي، واقبلي عليه. اغمسي كلامك في العسل.. واطلبي العمل مازلت صغيرة.. ولن يرفض.

– حين أراه.

وخرجت منها آهة ممطوطة تنبهت لها السيدة.

– ألا ترينه.

– دائم السفر.

- لا تحدثيني عن السفر.

قبضت بيدها على الفنجان ونظرت في رسومه، وخطوطه كأنما تستقرئها.. حجبت النظارة السوداء بؤبؤ العين، ودمعا يترقرق..

خشيت أن تكون قد نكأت جرحاً لدى السيدة فأسرعت تطلب ليمونا، وينسونا.. وتريثت حتى هدأ.

أخرجت منديلا ومشت على وجهها:

- سافر إلى إيطاليا.

وغام صوتها وهي تتابع:

- ابني ضاق به الحال، ترك أولاده.. ورحل.. منذ عام ونحن في كمد..

رفعت رأسها، واستمعت لصوت عصفورة تقف على غصن قريب.

وتعقبتها وهي تطير من فنن إلى آخر، ثم تهوي بجناحيها إلى الأرض.. تدس منقارها، تتنطط، ثم تطير ثانية:

- كان متحمساً لثورة 25 يناير.

- من؟

- ابني.

فردت جسمها، وأخذت نفسا عميقا وأخرجته.

– شارك في الوقوف، والتظاهر، واعتصم، كان يحلم بمصر جديدة، خالية من الفساد، وهتف "عيش وحرية وعدالة اجتماعية".

لمحت غضبة تطل من العينين، فحاولت أن تشغلها لكنـــها تابعـــت حديثها بنبرة عالية.

– صدمنا بالفوضي تعم البلاد، والاحتراب كل يوم بين الناس.

تلفتت إلى القريبين منهما تقيس رد الفعل وقالت في أسي.

– نتيجة مؤسفة.

مدت السيدة يدها وصوبت سبابتها إلى الفراغ كأنمـــا تفقـــأ عينـــا تتلصص عليها.

– كل يوم يتساقط القتلي والمصابون

استوت على المقعد، مدت ساقيها وقالت وهي تحدق فيها.

– زاد الإرهاب وانتشر الخوف.

لملمت ذراعيها ووسدهما صدرها النحيل.

– كان ابني يعمل في شركة سياحية، استغنت عن العمالة، ونقلـــت نشاطها إلى بلد آخر.

– السياحة تأثرت بالثورة.

– لم يستطع مواجهة ما حدث.. هو وأسرته.

توقفت عن الحديث ورمقتها في زهو وقالت:

– لي حفيدان في الثانوي والإعدادي.

نطقت السيدة في حدة كأنما تقدم شهادتها.

– انطفأت الأنوار، وسدت الطرق.

جاءت الثورة فأفقدته وظيفته وخربت البيت.

دمعت عيناها واختلط صوتها بنواح

– سافر ككل الشباب الذين يضيق بهم الوطن.

– إلى أين؟

– إيطاليا.

– ترك زوجته وولديه على أمل أن يستدعيهم ولولا أن والده ترك وديعة صغيرة في البنك ما استطعنا ترتيب حياتنا.

أخرجت السيدة من حقيبتها رسالة وأبرزتها.. وحركتها بين أصابعها..

ثم أودعتها ثانية في الحقيبة.

– أرسل لي رسالة.. يقول فيها إن عمله لا يدر عليه دخلا، وأن الغربة تأكل قلبه والحنين يقتله.

ونظرت إلى أعالي الشجرة التي تظلهما، لم تترها الزنابق أو زهور الياسمين التي تملأ المكان وقت وقالت في غضب واجم:

– فرقتنا الثورة.

حاولت أن تهدئ من غضبها وتبث فيها أملا تحتاجه:

– هو قادر على مواجهة حياته الجديدة.

ولجها قلق طارئ لم يطرأ على بالها وتساءلت: أيمكن أن يحدث لزوجها ما حدث لغيره؟ هل تتأثر أعماله ويتعرض إلى مشاكل مالية؟ هل يأتي يوم يفاجئها فيه باضطراره للسفر أو نقل نشاطه إلى مكان آخر؟

رأت السيدة في عينيها همويما فتقرت بإصبعها على الطاولة حتى تخرجها من حالتها:

– لا تذهبي بعيداً..

وابتسمت وهي تقول لها:

– لا تنسي نصائحي واقتربي من زوجك..

وجمعت أشياءها، واتكأت على حافة المقعد، نهضت سريعة وساعدتها، ضعت المجلة والجريدة تحت إبطها، واستندت على عصاها، واستقام جسدها إلا من انحناءة عند الكتف.

عرضت على السيدة أن تصاحبها فاعتذرت بأن سكنها قريب، وأنها ستستقل التاكسي بعد أن تلتقي بصديقتها.

حين نظرت إليها كأنها تستفهم! بادرت السيدة.. أن صديقتها تنتظرها في الحديقة القريبة من المدخل..

تأملت وهي تراها تسير بتؤدة، وتنقل خطوها في تثاقل.

أحبت أن تتريض في التراك، وتستدعي أثناء السير ما تحب أن تراه، وتعيشه من جديد.. فهي إن لم تجد من تصاحبها صاحبت ظلالها، ودوحتها. لكنها هذه اللحظة تشعر بالقلق.

فالحديث مع السيدة أثار خاطرها وأصابها بالشجن الذي لن تتخلص منه سريعا، ستصطحبه معها إلى حين.

سارت بين ممرات الحدائق ومساحاتها الضيقة وشدت حقيبتا واتجهت إلى المدخل.

أثناء خروجها لمحت السيدة العجوز بنظارتها السوداء تجلس أمام رجل متقدم في العمر، لاحظت عليها اهتماما واضحا بالحديث، رأت

بسمتها وهي تتكلم معه، ويدها وهي تربت على مجلتها، وأصابعها وهـــي تترنم على سطح الطاولة.

أراحها أن تستمع إلى ضحكة عالية تصدر منها، وأن وجهها مشت على فرحة طارئة فلم يفلتها.. راقبتها وهي تقيم جســـدها وترجـــع إلى الوراء.. ربما لتخفي إنحناءة الظهر.. استندت إلى ظهر المقعد وهي تربت بكفها على ركبتها.. وتحدق في الرجل وتضحك له.

حمدت الله أن حالة السيدة تبدلت وأن الرجل الذي كانت تنتظـــره جاء، وتمتمت وهي تمرق من الباب.. لماذا كلما انفرد الرجل بالمرأة أطل الشعف من مكمنه ولاح يمرح فوق الوجوه؟!

العربة

ظللت تستمعين للمرأة وهي تتحدث عن ابنها الذي هاجر في طلب الرزق وعن الفوضي التي عمت البلـــد.. كأنـــك تعيشين في بلد آخر.. أخذتك الدهشة حتى أن السيدة قالت كأنها تنتقدك «إنت مـــش عايشـــة في البلـــد»، خجلـــت وعجزت عن الرد.

استمرأت حالتك لتبرير ما تقومين به كما لو كان أحد يجبرك على الفعل .. والإذعان له.. مع أنك تستطيعين أن تتحرري وتفكي قيدك، وتنطلقي إلى حياة تتجدد، فالسماء حين تغيم تصفو من جديد، الماء حـــين يهـــدر يسكن، والبرعم حين ينكتم ينفتح.

فلماذا تسيرين في درب لا ينتهي بفضاء رحـــب، وسمـــاء زرقـــاء وشجريتيه بأغصانه، وتصرين على طريق يواجهك بحائط صدّ..كحارتك القديمة..

فضلت أن تجلسي أمام التليفزيون تشـــاهدين الفوضـــي والعـــراك، تسأمين، فتديري القناة بحثا عن فيلم تشغلك مواقفه العاطفية.. وتعيشين لحظتك غافية عما حولك.

ها أنت الآن تفتحين نافذة الشرفة.. لتتأكدي من الفرقعـــات الـــتي تصلك.. تطلين من الشرفة فتجابهك أصـــوات الخرطـــوش، وأدخنـــة القنابل.. وقطع الحجارة الطائرة.

أدهشك الشباب الذي يقذفون الحجارة ويشعلون النار.. تجاه شباب مثلهم شباب الوطن يتعارك وينقسم. أضحى الحاضر في عيني كالعتمـــة التي صنعها الدخان.

بحثت عن الشرطة.. كانوا بعيدا عـــن مرمـــى عـــيني.. تحجبـــهم العمارات..

لكنهم حددوا موقعا لا يتعداه المتظاهرون/ المتعاكون.

لم تركوا هؤلاء يتعاركون ويفرشون الشارع بالحجارة والأدخنة؟ أي غلّ هذا الذي يحركهم؟. أراهم وكأن الشيطان يمرح بينهم ويلهو..

صكت مسامعي ألفاظ نابية، وهتافات عدائية فأيقنت أنهم شـــباب مغيب وضال.. وتذكرت ما كنت أقرأه خلسة على الحوائط من كتابات بذيئة وشتائم لم أتصورها يوما تكتب هكذا ليقرأها كل من له عين.. أي تدن هذا الذي طال الأخلاق والسلوك؟ وكنت أحدث نفسي في حـــزن وأسي.. ها هو حصاد التعليم ومؤسساته!

رحت أتابع الموقف وأخاف أن أصاب بحجارة طائشة.. كنت ألـــوم نفسي. ماذا تنتظرين أيتها الجامحة.. ألم تدركي الأمـــر إلا حـــين وصـــل البيت؟.. وأنك على وشـــك المـــوت إن جنحـــت طلقـــة الخرطـــوش

وأصابتك؟.. ألا تعلمي أن العمارة التي تعيشين فيها قريبة من الشـــارع، ومن مهبط الكوبري.

أطل من الشرفة، وأمعن النظر، أشب على قدمي، وأرمـــي بصــــري بعيدا.. صادت عيني عربة شرطة محترقة.. وعددا من الغاضبين يحـــاولون إسقاطها.

وارتعبت وأنا أرى هذا الكم الهائل من الحجارة التي تتطـــاير حـــتى كادت تصيبني..

صرخت في عنف وأنا ألوح بذراعي.. أيها الأعداء.. لســـتم مـــن مصر.. أبناء مصر لا يتعاركون، لا يقتل بعضهم بعضا..

تنبه الجيران لعلو الصوت ومناشدة الشباب أن يكفوا..

أشاروا إلى أن أبتعد عن الشرفة.. وألا أنحني كثيرا فوق السور حتى لا يصيبني أذى.

أثارك المشهد، وحدة العنف فازداد غضبك وصياحك.. ولم تتنبـــهي إلى تلك اليد المصوبة إليك من أسفل العمارة المواجهة.

كان الحجر ينطلق في قوة ويرتطم بزجاج النافذة، حمدت الله أن نجاك من أذى كان قريبا منك.

لمحت عددا من المتظاهرين يفرون مـــن الغـــاز، راحـــوا يقـــذفونني بالحجارة، وأنا أصرخ فيهم ويسبونني، انطلقوا نحو الباب لكنـــه كـــان مغلقاً، فتسللوا بعيدا...

جاءك الموت على شرفة بيتك، فمم تتخوفين إذن؟ كان بك رغبة أن تشاهدي ما يحدث.. وآن لك أن تقتربي.. أن تخلعـــي رداءك، وترتـــدي رداء الحالة الراهنة.. وتتعرفي.

أطل على طريق النصر وعلى مهبط الكـــوبري، عربـــة الإســـعاف تدوي.. تنزلق عربات بفعل بقعة الزيت، ثمة تصادمات.. مؤلمة.. أصابني الهول وأنا أرى بعيني عربة خاصة تجنح، وتهتز، وتخرج عـــن الســـيطرة، وتصطدم بالسور الحديدي.. اخترقته، استقرت في الوسط.. كأنها وسط الميزان إن مالت أو تحركت.. سقطت.. رأيتهم يهرولون ويصـــعدون.. الهلع على من بداخلها جعلهم يفكرون في مخرج آمن لهم.

كدت أسقط وأنا أقف على أطراف أصابعي علني أتحقق مما يحدث.

ارتجف قلبي وخشيت أن تسقط العربة.. غاظني وأصابني بالكمـــد.. شباب يهرولون، يقطعون الطريق، ويقذفون العربة ومن حولها بالحجارة.. ذكرني الموقف بما كنت أراه في التليفزيون من كر وفر وصـــدام حـــول مطلع أكتوبر، وكوبري قصر النيل، والمتحف المصري بميدان عبد المـــنعم رياض.. لم يتغير شيء.. السلوك العنيف.. نحن لم نتغير.. وصلني صـــوت جارتي، كانت هي الأخرى تراقب الموقف من نافذة شرفتها المجاورة:

- ادخلي.. كفى ما حدث.

لم أعرها انتباها فعاودت حديثها:

- ابتعدي حتى لا يصيبك خرطوش.

- في الشرفة!!

مدت رأسها.. واقتربت:

- سقطت قنبلة مسيلة للدموع بالخطأ في شرفة قريبة لي.. كادوا يموتون لولا سرعة إسعافهم.

رنوت إليها وصمت.. وصلني صوتها ناصحا:

- لا تغامري.

صحت غاضبة، وأنا ارتجف خوفا على من بداخل العربة كأنهم بعض من عائلتي:

- متى نخرج.. متى؟

لملمت نفسي ودخلت.. وضعت على كتفي شالا أبيض، وطوقت به رأسي.. ونزلت.

سرت في حذر، تواريت عن العيون وابتعدت عن الوجوه الغاضبة، وتوقفت أمام محل عطارة صغير أغلق أبوابه خوفا من الفوضى والاشتباكات.

اذهلني امتلاء الشارع بالحجارة والزلط والزجاج المكسور، وبقايــا عصي وأخشاب، ولاحت آثار حريق في واجهة محل سوبر ماركت.. كل هذا الذي أراه متى حدث؟ وكيف لم أتنبه للزلزال الذي دمر المكــان؟.. رميت بعيني نحو شارع ضيق يتعامد على الشارع الرئيسي فرأيت خرابــا حل بالمكان الذي كان يشغل بحركة البيع والشراء.. أين ذهبت الفواكه، والخضروات، وشادر السمك؟

لمحت في الطرف منه «كاردون» من رجال الأمن مجهزين بــأدوات الحماية والمواجهة.. ولاحظت جماعات صغيرة تظهــر وتختفــي، كــان معظمهم يحمل حقائب مستطيلة والعيون تترصد والأرجل تغير خطوها.

غيرت موقعي وابتعدت، وعيني على العربة التي تكاد تهوى من أعلى الكوبري، أتلهف على رؤية من بداخلها، لمحت رجلا وامرأة بجانبه، ثابتان لا يتحركان خوفا من خطر مفاجئ.. كان الرعب يأكل ملامح الوجــه ويتر من العين دمع يبتهل.. ثمة مناوشات، شباب يطارد بعضهم بعضــا.. عطلوا بصخبهم الفرصة لنجد ة العربة ومن فيها.. حتى واتتهم فرصــة طارئة فراحوا يطاردون جماعة من الشباب تقف بجوار ســيارة الأمــن في الطرف الآخر من الشارع.

انتهز الحاضرون فوق الكوبري الوقت الذي سنح لهــم وأحــاطوا بالعربة، وضعوا احجارا أمام العجلتين الخلفيتين، حرصوا ألا يهزوهــا أو يفتحوا أبوابها.. فحركة رعناء غير مقصودة ستهوى بالعربة.

لمحت شابين يمسكان بجنزير طويل من الحديد ويصعدان مسرعين نحو العربة، رأيتهما يربطانه بالسور المقابل، ثم يحكمان ربطة بها من ناحية «الصدام» الخلفي.. كان مشدودا. أدركت أن الشباب سيجذبونها إلى الخلف، حاولوا، احتفظوا بالمسافة.. وامتداد الجنزير بين السور والعربة.. راحوا يشدون بهوادة، وبحيطة، ذكرني الموقف بلعبة شد الحبل.. تساءلت لماذا يبذلون كل هذا الجهاد لإنقاذ العربة.. لم لم يطلبوا عربة الإنقاذ. أتمثل لهم أملاً؟

تنهدت بعمق وقلت هامسة لنفسي.. ها هو المصري تظهر أصالته في المواقف الحرجة!

تنبهت إلى بعض الشباب الذين يقفون تحت الكوبري مباشرة وكأنهم يستعدون لالتقاطها إن هوت منهم.

وتوجست خيفة..

***

السور يقبض على العربة من الجانبين..نصفها على الكوبري والآخر في الفراغ.. والرجل وامرأته في الصدارة، الجزء المعلق في الهواء.

أدارت رأسها ترمق الوجوه، لمحت بواب العمارة فهمست:

– ستسقط العربة.. منهم.

لحها بجانبه فتعجب.. لأول مرة يراها في موقف كهذا، لم يتعــود أن يراها بزي البيت.. هي دوما متأنقة وهي تطلب منه تأدية الطلبات.. مــا الذي جري لها؟

اقترب وسأل في لهفة:

– أتعرفين من بداخلها؟

قالت وهي تدير رأسها بيته وبين ما يحدث فوق الكوبري:

– لا .. لكنهم بشر.

وأشارت بيدها إليه وقالت في أسى.

– انظر إلى الهول الذي يطل من العيون.

تطاول البواب كأنما يود أن يتيقن مما تقول:

– أخشى أنتتزلق العربة منهم.

– لا تقل هذا.. عندي حل..

طلبت منه أن يحضر عمودا من الخشب كالذي يراه منصوبا في الخيام والسرادقات.. وأن يذهب به إليهم.. ليحجزوا به العربة.

– دعهم يضعونه في استقامة السور، وكأنه بديل للجزء الذي هدم.

نظر إليها مندهشا ولم يعلق .. فأدرفت.

– انظر..

وأشارت إليه أن يرفع رأسه ويدقق النظر.

– لو جذبوا العربة سيصدها العمود إن أفلتت منهم.

هرع البواب إلى متجر الأخشاب وأدوات البناء في الجانب الآخـــر من الشارع.

راقبته بوجل يطل من عينيها، ويرعش جسدها.. اطمأنت حين رأته يخرج ومعه عامل من المتجر.. كانا يحملان العـــامود ويصـــعدان بـــه إلى أعلى..

رأهما يتناقشان، ويشيران إليها أسفل الكوبري على ناصية الشارع المقابل، رفع بعضهم أصابعهم.. مباركين الفكرة التي عرضتها.

راقبتهم وهم يضعون العامود أسفل العربة تحت عـــامود الكـــردان مباشرة.. استقر عامود الخشب بجوار السور وامتداده.. وبدا كأنه سور جديد يحمي العربة من السقوط.

ارتفعت الرءوس إلى السماء.. وامتدت الأيادي إلى الجنزير.. قبضت عليه في قوة.. وصوتهم يصيح باسم الله.

تزحزحت العربة قليلا، أعادوا لف الجنزيـــر، احتفظـــوا بالمســـافة الجديدة، تحركت العربة إلى الداخل.

ارتج قلبها واستراح.

قالت في صوت واضح تنبه له الحضور:

– سينقذون العربة.. وسيحيا أصحابها.

حادث مفاجئ

ها أنت قابعة في مسكنك وحيدة، تترددين على الأماكن هروبا من الوحدة.. حياة مملة في ظل زوج غائب، أكان يجب على الأم أن تتعجل الزواج وتجبرك عليه؟

لم يقل يوما كلمة «حلوة» إن تزينت، أو تعطرت.. ألم يهاجسك –يوماً– أن تحلمي برجل يعيد لك انشطارك؟

أمامك عشاؤك، فاكهتك وشرابك الساخن، نفسك لا تهفو لشيء.. انقبضت روحك وكادت تهجرك.

تصورت أنك تملكين ذاتك، ووقتك، وحركتك، ونسيت أنك أنثى تحتاجين إلى رجل!

ما الذي جعلني أخطف صورة أمي وهي تمرق أمامي وأضعها في البرواز المواجه؟.. تمنيت لو غسلتني وخففت من ألمي.

أحتاجها.. أحتاج إلى يدها تمس جبهتي وتخفف صهدها.

لكنك تماديت في غيك، وتخيلت أن أسرتك سعت للتخلص منك وكنت قاسية القلب على أهلك.

جاءتك اللحظة لترممي حياتك وتبتعدي عن الشطط الذي غلبك.

إلى متى تهيمين في شوارع نفسك دون وعي؟ ألم يئن الأوان أن تودعي شوارعك، وتهملي حكاياتك؟

ماذا يفيدك الصوت القادم من الظلام؟

أنتظرك يا حبيبتي على حد الموج.

أشتاق إليك، مدي يدك إليّ.. وضميني.

ظل يمتدح وجهك، دلالك وحبك.

وفجأة فرّ.. وهجر.

كفكفي دمعك خلف جفنك، وتشبثي بزوجك.

ترى أين هو الآن؟ لم يتصل.. هل أصابه مكروه؟ عمله قريب من أماكن العنف والصدام. كيف لم أنتبه؟ كان يجب أن أسأل لأطمئن.. جاء سؤالي كالسوط يلهب الجسد!.

ما هذا الجحود الذي أنا فيه؟ هل الإهمال يورث البغض؟

أبدو كحمامة أجهدها الطيران فراحت تترنح.

لا سبيل أمامي سواه..

أتكئ على حافة النافذة.

تقترب السماء، وتركض غيمات معتمة تكاد تفلت من النافذة.

أتقلب على السرير باكية.

يهاجمني مشهد الدخان المسيل للدموع، والعربة المعلقة.

أفزع مرعوبة، كأن يدا غليظة تضغط على رقبتي، تخــنقني، والليــل يسطوني بظلمته.

***

أصاخت السمع.

ثمة رنات تصل إليها.. رمت بعينها تجاه ســاعة الحــائط. الواحــدة صباحاً والسكون يخيم على حجرة النوم، هاجسها خاطر أخافها.

من يقف على الباب في هذا الوقت المتأخر؟

كانت رنات الجرس كنقرات طائر صباحي.

أطلت من عين الباب فرأته.. واربت الباب، وتعجبت.

لم يخبرها بموعد الوصول.. انتظرت حتى دخل.. وأغلقت الباب.

سألته بلا قصد لمجرد الكلام:

– أين الحقيبة؟

– في السيارة.

نظرت إليه مندهشة فأردف في وهن:

– سيأتي بها الحارس.

شدت الروب وأحكمته:

– أجهز لك طعاماً.

أومأ بالرفض.. ولج حجرته، تعثر في السجادة.. كاد يسقط أسرعت إليه..

أسرعت إليه.. ساعدته حتى وصل إلى فراشه.. تمدد، فـرد ذراعـه وساقيه، لاحظت أنه متعب، ولا يود الحديث.

لاذ بالصمت.. عرضت أن تأتي له بمشروب... أومأ بالرفض.

لو سألته عن حالته.. هل يجيب؟.. أم سيومئ بالرفض!

ستتكلم، تريد أن تعلم.. أن تعرف ماذا حدث له؟

راحت تسأل دون إجابة.. مجرد إيماءات تتكرر:

– مالك/ تحس بتعب/ مريض / حدث شيء في السـفر/ كنـت في الإسكندرية؟/ هل تعرضت لأذي؟/ هل .. وهل..؟

التزم الصمت، وأقلقها الإجهاد الذي يبدو عليه.. بدا الألم يناوشها وهي تري ملامحه تتقلص، وكأنه لا يريد لها أن تعلم أنه يتألم ويعاني.

اقتربت منه وحدقت، تساءلت في رجفة مباغتة.. كيف لم تلتفت إلى السجحات في وجهه؟ هل وصل الأمر بها ألا تطل في وجهه وتتأمل؟

رابطة العنق مسحوبة من رقبته تكاد تسقط، لمحت أثرا مدّمما حـــول الرقبة، كما لو كان أحد خنقه.. القميص منفلت من حزامه، وكم سترته يتهدل كأنه مقطوع عند الكتف.

حدقت فيه وارتعبت.. ماذا حدث له؟ لماذا يتحاشى النظر إليها؟

أغمض عينيه، وتنفس بصوت مسموع.

اقتربت، ربتت على صدره، مست جبينه، كان دافئا، جست يـــده، كانت نبضات قلبه تتسارع.

قالت في لهفة:

– أنت متعب.. سأتصل بالطبيب.

أومأ بالرفض.. اكتفى بحركة الرأس وصمت.

ساعدته على خلع ملابسه.. الجاكيت، البنطلون، القميص..

استند عليها ومضت به إلى الحمام.. ساعدته على الاغتسال، الوجه، اليدين، الساقين، شعر الرأس.. لاحظت انقباض الوجـــه وهـــي تمســـد الرأس، وتلمس السجحات.. عرضت عليه أن يستحم، رفض في إيمـــاءة خافتة.. لفته في منشفة عريضة ملونة، أخذته إلي غرفته، جهزت ملابـــس نظيفة، ساعدته على ارتدائها، ثم.. دثرته في فراشه.

– سأجهز لك ليمونا ساخنا بعسل النحل.

أطبق جفنيه وهز رأسه.

ظلت تجاد نفسها حول ما تراه.. ليست عادته أن يلتزم الصمت إن حدث حادث ما.. يثرثر قليلا، يشاهد التليفزيون، يكثر من فناجين القهوة، لا ينام ليلة، لكنه الآن على غير ما تعود، ما باله لا ينطق؟.. أتعارك معه أحد؟.. هل تعرض لحادثة؟ أكان يصاحبه أحد العاملين معه؟.. ألا تبوح لي فتريحني!

حين عادت كان مستلقيا، وصوت تنفسه عاليا، أيكون قد دخل في النوم؟.. وضعت الليمون فوق الكومدينو.. جلست ساكنة على مقعد أمام الفراش.. عيناها عليه.. الصدر، والنفس، وفتحة الفم، والصوت الخارج منه.. تملته. راقبته طويلاً.. واطمأنت عليه.

نهضت ومضت في حذر إلى غرفتها..

***

في الصباح وجدها أمامه.

كانت قد استيقظ بعد غفوة طالت.. واربت الباب ودخلت.

اطمأنت عليه.. طوت الستارة، وفتحت النافذة.. دخل الهواء وطير شعرها المسترسل، لمحت نفسها في المرآة، لم تكن غيرت ملابسها.. كانت متعجلة.

بشت في وجهه كأنها زنبقة متوردة وقدمت له مشروبا ساخنا.. قرأ على وجهها فرحا مشوبا بالقلق.. فراح يرنو إليها.. ويبتسم.. عاود الصمت.. ومد يده إلى ملاءة حريرية، طرحها على جسده وتنهد.. لم تبادره بالحديث.. تركت الأمر له، يكفي أنه أمامها على كل حال.

شغلتها علامات التعب التي تبدو عليه، ووجهه الذي يحمل أسى وحزنا. وعيناه الواجمتان، وسكونه المقلق، وذهوله الغافي.

أدركت أن الصمت طال، وأن عليها أن تحادثه، وأن تخرجه من شرنقة الصمت.

قالت في مودة:

- «حمد لله ع السلامة».

-.........

- لم يكن معك أحدا؟

-............

- قلت لك لا تسافر ليلا.

-..............

- كان يجب أن تدرك أن الأمن غائب في البلد.

-...........

تجنب النظر إليها، وأطرق.. ماذا يقول لها؟ الموقف العصيب الـــذي مر به كاد يميته. فكيف يحكيه لها؟ وهل تهتم؟ هل تكترث بما حدث لـــه؟ أم تتجاهل الأمر كعادتها؟. تركته ومضت إلى الحمام، اغتسلت وغـــيرت ملابسها ومشطت شعرها وتعطرت.. حين عـــادت.. غـــردت عينـــاه وابتسم..

خطفت بسمته وأطبقت عليها الجفن وأسدلت الرموش...

غزاه العبق، فارتجف القلب، واشتاق.. رأته على حاله، وأدركـــت شغفه.. هاجسها خاطر أن يصحو النائم، ويزيح عنـــه اللامبـــالاة الـــتي أصابته بالبلادة.

ضاحكته فضحك، ثم مضت به إلى الحمام ليغتسل.. مشـــط شـــعره بدل ملابسه وتأنق. أحضرت أنبوبة المرهم، وراحت تلامس السجحات وتورمات الوجه والعنق وأعلى الصدر.

جلس في البهور، رأى اللوحات على الحائط، الـــورود، وأغصـــان البامبو، وصور الزواج، وجهاز كمبيوتر، وتماثيل صغيرة لعرائس ولعـــب أطفال، وأغصان لورود بيضاء تتدلى من أعلى الحائط وتحيط بالباب.

نظر إليها بامتنان وهي تقدم شرابا دافئا محلى بعسل النحل.

استدارت وهي تقول في مودة:

– سأعد الإفطار.

يذكر أنه لم يتناول إفطاره بالبيت غالبا، كان يفضـــل أن يفطـــر في مكان عمله.. لكنه هذه المرة.. سيقبل على الطعام، من يدري؟

قد يلتهمه التهاما.

هو يشرب فنجان القهوة.. نظر إليها وابتسم:

– حان الوقت لتعرفي ما حدث.

***

في عودتي، وقريبا من مدخل القـــاهرة، فوجئـــت بعـــائق يعتـــرض الطريق.. لم أتوقع أن أجد جذع شجرة يعترضني، أبطأت في الســـير، زاد قلقي وتوجست خوفا، فجذع الشجرة لم يضع نفسه.. ثمة شخص ما أقام الحاجز ليحتجزني. طرأ على ذهني الأحداث المشابهة واختطاف الـــبعض، وسرقة السيارات، ووقر في نفسي أن الفوضى التي تسود البلاد وراء هذا الانفلات الذي استشرى.

ما الذي يمكن أن أفعله؟ هل استدير وأعود؟ هل أنزل من الســـيارة وأبعد العائق؟ وهل أقوى؟ أدرك أنني الهدف المقصود.

فوجئت بمن يقف أمامي. منن أين جاء؟ هل سقط من عـــل؟.. لـــو رأيته لفزعت. كان ملثما، ويقبض على سلاح ناري.

أدركت الأمر، وأن ما سيحدث حـــدث لغـــيري.. فجـــأة رأيـــت شخصيت ملثمين يقتربان، في أيديهم نصال تلمع. أحاطوا بي. كنت قـــد

احتطت فأغلقت أبواب السيارة.. طالبني الأول أن أفتح الأبواب.. تلكأت..

لاحت صورتك أمامي، فأشفقت عليك، وخفت عليك أن تترملي.. فتريثت، وبدوت لهم كأنني أفكر.. لكن صبرهم نفد، كسر الملثم الأول الزجاج، فتح الباب وشدني، وأخرجني.. حين قاومت أشبعوني صفعا وضربا قام أحدهم بتشريط جلد والوجه والرقبة بمدية مدببة.. شدني من رابطة العنق حتى كدت أختنق.

قلت في نفسي ليأخذوا كل شيء، ويتركوني.. كأنك كنت تسلطين صورتك عليّ.. وتشيرين على ألا أعترض.. كما لو كنت شاهدة.. تركتهم.. جردوني من المال والموبايل.. والساعة والحقيبة.. وكل ما طالته أيديهم.. لكنهم كانوا رحماء.. دسوا في سترتي مائة جنيه.. تعطفوا، لعلني أجد وسيلة مواصلات أخرى.

أعادوا جذع الشجرة إلى جانب الطريق، وبرزت دراجة بخارية ركب اثنان سيارتي، وتابعهم الثالث بدراجته.. وانطلقوا.

تركوني في الطريق وحيداً.. يلسعني العراء ويرجفني الرعب.. جففت دمائي.. وانتظرت.. تكرم سائق تاكسي وأنقذني.

اعتذر لمن يركب معه.. وطلب موافقته، وافق.. فركبت معهما.

رثى لحالي.. وأوصلني، أقترح أن أذهب إلى الشرطة لكنني فضلت المجيء إلى البيت.. كنت على وشك الانهيار.

***

كانت عيناها تتنديان بالدمع وهي تستمع له، وتنتفض.

تقبض بأصابعها على ثوبها وتشده، تقيم جذعها وترفع رأسها وتحدق فيه وهو يتحدث عن صورتها التي تبدت له، تنصحه.

خبطت بيدها على فخدها.

علا صوتها لاثما وهي تحادثه.

– تأخذ الأمور باستهتار.. وتلقائية.. لا تلتفـت للمفاجـآت، ولا تتوقعها.. ولا تعمل حسابك لها.

كانت تعيش لنفسك.. كان يجب أن يكون معك أحـد العـاملين معك.

فزت ناهضة في خطفة مباغتة جعلته يرتبك في جلسته.

مضت إلى الثلاجة، أحضرت زجاجة ممتلئة بعصير المـانجو، مـلأت كأسا وقدمته له.. وجلست..

– الحمد لله.. نجوت من الشياطين.

مدت ذراعها، وفردت أصابعها في وجهه.

– لن نفرط في حقنا سنذهب إلى الشرطة ونقدم بلاغـاً، أنـت في مكانة لا تتنازل فيها عن حق من حقوقك.

نظرت إليه، كان يحدق فيها، لا يصدق أن هذه زوجته.. طالبتــه أن يكف عن التحديق ويستمع إليها.. رنا إليها وابتسم.

– جاء الوقت لتغير من عادتك، عليك أن تنظر إلى نفسك بنظــرة جديدة.

سفريات كثيرة يستطيع غيرك القيام بها.

خبطت على صدرها.. ووضعت رأسها بين كفيها وتنهدت.

– ماذا كان يحدث لو خرج الأمر عن حده!

استراح في جلسته ورشف من الكأس رشفة خاطفة وبدا لهــا أنــه يستمع، ويكترث، وتحمل ملامحه تساؤلاً.

– كأن يتركوا فيك عاهة لا تبرأ.

التزم الصمت، وقلبه يشعر بفرح ينبض، وهو يتحسس عواطفهــا.. التي غيبها العناد.

– لم تراع مشاعرنا وخوفنا عليك.

هدّأت من مشاعرها التي زاحمتها وعجزت عن كبحها وقالت في نبرة خافتة:

– حياتك ليست لك وحدك.

***

داوم النظر إليها مندهشاً.. كان لكلامها أثر واضح في نفسه. أحس أن كلماتها كقسطرات الندى تنعشه.. لكن.. أهي صادقة في مشاعرها؟ أخافت عليه فعلا؟.. أمخافت أن تحيا مع زوج عليل؟ أو بدون زوج كما شعر من لهجتها.. وقلقها؟ راح يسأل نفسه.. أيمكن أن يزيل هذا الحادث المفاجئ صدأ الأيام؟

هل بلغت الحياة بيننا مدى يستدعي حادثا أليما يعيدها إلى مسارها الصحيح؟.. أثمة أمل يحيي الموات؟

عليك أن تنظر إلى الحياة من منظور مختلف لما درجت عليه..

آن لك أن تقر بأنك ظلمت زوجتك، وعليك أن تحدد خطوتك، وتقترب، وتستعيدها.

نهض، اقترب من النافذة، نظر إلى الفضاء الواسع، تنسم هواء طازجا، زاحمته رائحة الخضرة، وعطر الزنابق.. جدت نفسها معه..

أطلت من النافذة وضع يده على كتفها، وضعت يدها على كتفه، بدوا كمن يتهيئان لأخذ صورة معاً. أنّا يبتسمان، وهواء الصباح يخاتلهما وينسل داخلا، ينساب في الأوردة، ويدفع الدم دافئا.

***

هل أخبره أنني ما أحببته يوما؟ وأنه لم يساعدني عليه حبه؟

أم أشعر به كزوج يروي امرأته ويشبعها.

أتذكر نظرته وهو يتهمني بالبرود، ينهرني وهو معي.

يتهمني أنني لحظتها أكون بعيدة، أنشغل بغيره، كأنه غير موجود وهو الذي يسعى لراحتي.

يتخيلني غزالة جميلة تنضح بالعافية، لكنها في الحقيقة تئن من مواقعته.

حين كان يرغب في سفر طويل كانت تحس أن حجرا ثقيلا يزاح عن صدرها، وكانت تجهز ملابسه وأغراضه وهي متضررة.

تحدث نفسها بأن أنفاسه تتردد في المكان بديلا عن صوته الذي نسيته.. وهي الآن شاهدة على حياته من جديد.

ربما أتوا به جثة هامدة.. الله أراد له حياة جديدة.. لعله الآن يتعظ.. تنبت النظرة إليه وفزت نافرة من ذكر الموت.

يقشعر بدنها وتدفع بيدها سريعا إلى عينيها تمسح دمعها، فهي لا تحب أن يراها متلبسة بحالة الضعف التي لا تقصدها.

راحت تتجول في البيت من حجرة لأخرى، تتكئ على المقاعد، تمد يدها وتنضو أتربة عالقة.

تجلس على مقعد خيزراني، تمل فتنهض مارقة إلى المطبخ، تغيب ثم تظهر وفي يدها كوب من شراب «الكركدية» البارد، نظرت إليه نظرة

جانبية، كادت تتعثر في خطوها، وبدت في حالتها المرتبكة كما لو كانت تقابله لأول مرة.. تعجبت من الحياء الذي ألم بها وكاد يسقطها أرضا.

تابعها من مجلسه ومقعده الوثير وأربكه تورد الوجه وحمرته، لم يـــره على وجهها من زمن! ابتدرها باسما، ضاحك العين..

مسحت بباطن كفيها شعر رأسها وناولته المشروب وجلست.

دست يديها بين ركبتيها ووضعت وجهها المتورد بين كفيها.

واستهدفته بعينيها الرانيتين.

***

بقلب مفعم طارئ، أرسلت نبضها في شغف إليه.. كيف فرطـــت في نفسها إلى هذا الحد.. والآن.. ها هو أمامها.. مستسلما لحالته، عليها ألا تدع شيئا يحول بينها وبين تحقيق أمنيتها في سعادة كانت ترجوها يوماً.

ها هو أمامها.. منهك وحزين.. يكفي أنه معها.. وتألقـــت عيناهـــا بحلم بعيد.. لم تسمح لنفسها أن تبتذل، استطاعت أن تضع حـــدا بـــين الهوى والجموح.. وتساءلت: أكانت رعناء حين سارت في اتجاه واحـــد أوصلها إلى اليأس.. وأدخلها في هوس الحبيب الذي هجر؟!.

تراه بين يديها هادئا وساكنا، شغوفا بها، وراضياً.

رفعت رأسها إلى أعلى وأغمضت عينيها، وسرت حركة خفيفة على الشفتين، حمدت الله على نجاته من الموت أو من عاهة دائمة.

رمت شفتيها فتقلص الفم بما يشعر بحالة من الغضب.

هذا ما أخذناه من الفوضى والعنف.

سيبرأ، وسيعود معافى في بدنه. ابتهل إلى الله أن يعود إلى عمله وعملائه وإلى بيته.. ستعمل جهدها أن يعود إليها كل مساء محملا بالرغبة. ستخلع له ملابسه، وتسقيه فنجانه الساحن. وستجلس على حافة سرير، تنتظر أن يحكي لها عما فعله في يومه.. وما يمكن أن يفعله!

***

وصلهما صوت منغم يرعش البدن ويدلف إلى القلب، أطلا من نفاذة الشرفة، واجهتهما أغصان الشجر الملتف وأوراقه الخضراء.. سمعا تغريدة تتواصل وتتقاطع، تمتد وتقصر، صادته العيون.. البلبل زاهي اللون، بهي النغم.. يقف على فرع شجرة تبزغ منه زنابق مكتنزة وزهور بيضاء.

كان البلبل يغرد ويترنم، يرف بجناحيه ويطلق نغمة ويدير رأسه إليهما كأنما يرسل إشارة

اهتز الفرع بهبة ريح خفيفة.. رفرف البلبل بجناحه فارتجفا. انساب النغم صافيا فتلفقته الأوردة، وضبطا – معاً– القلب وهو ينبض ويدفع دمه إلى الوجه فيتورد، قرآ معاً وهج العيون وابتسما.. كانت البسمة طارئة.. لم تعفر طريقها من زمن..

لعلهما يدركان لم غرد البلبل هذا الصباح البار بعد ليلة أرقا فيهـــا، وتألما!

أيدركان تغريدة البلبل؟!.

لوحا له فرحا. أطلقا صفيرا متقطعا يحاكي نغمة، تنبه لهمـــا فـــراح يترنم.. أدار رأسه ثم حلق في الفضاء.. مرق أمامهما وحـــرك رأســـه.. وأرسل نغمة كأنما يلقى التحية.

ويترك وديعته، تغريدته.

تلهفا عليه، وفتحا القلب، وتلقيا النغم.

حين غيبه الفضاء، ابتسما، وانسحبا.. مرقا إلى الداخل.

يستقبلهما فراش يتوق إلى الدفء الذي حرم منه.

همست في خدر لذيذ.

كيف لم نسمع تغريده من قبل؟

***

صدر للمؤلف

– الخروج إلى النبع ، رواية ، مركز الحضارة للنشر ، القاهرة ، ط2.
– السيد الذي رحل ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، مكتبة الأسرة.
– الضوء والظلال ، رواية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2 ، الكتاب الفضي.
– حرث الأحلام ،رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، أعمال كاملة.
– الطرف الآخر من البيت ، رواية ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط2 ، أعمال كاملة.
– امرأة عابرة ، رواية، دار الإبداع ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط2.
– رأيتك في المنام ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– من يقتل الحب ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– صدأ القلوب ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– البنات والقمر، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– ذات الشعر المنسدل ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– قصاقيص الهوى، قصص قصيرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
– صانع البهجة ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– ألوان الطيف ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
– المدار ، مسرحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الفيل الصغير، أطفال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– أنا وكلبي ، أطفال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– أنا لولو ، أطفال ، كتاب قطر الندى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة
– الأعمال الكاملة ، مجلد 1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الأعمال كاملة ، مجلد 2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الأعمال الكاملة ، مجلد 3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– مختارات روائية ، مجلد 4 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

دراسات أدبية ونقدية:

- نظرات في قصص القرآن ، 3 أجزاء ، رابطة الأدب الإسلامي.
- من جماليات التصوير في القرآن ،جزءان ، رابطة الأدب الإسلامي.
- صورة المرأة في قصص القرآن ، مكتبة الحلبي.
- المرأة... العفة والرغبة ، كتاب الجمهورية.
- قطوف دانية ، كتاب الجمهورية.
- القصة في القرآن ، الهيئة العامة لقصور الثقافة
- القصة في القرآن... مقاصد الدين وقيم الفن ، دار قباء.
- من جماليات التصوير في القرآن ، ط2 ، سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- قراءة في القصة القصيرة ، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- محمود البدوي عاشق القصة ، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الفن والبساطة في أدب ثروت أباظة ، دار الشعب ، القاهرة
- الرؤى والأحلام.. قراءة في الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الذات والموضوع .. قراءة في القصة القصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- السرد في مواجهة الواقع ، مركز الحضارة للنشر، القاهرة
- ينابيع الواقع... قراءة في القصة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.